مركز حرمون
للدراسات المعاصرة
Harmoon Center
For Contemporary Studies

شعر الغربة عن الوطن بين القديم والحديث

دراسات في الأدب والفن

عبيدة الشبلي

22 حزيران/ يونيو 2018

مركـز حرمـون
للدراسـات المعاصـرة

مركز حرمون للدراسات المعاصرة هو مؤسّسة بحثية وثقافية وإعلامية مستقلة، لا تستهدف الربح، تُعنى بشكل رئيس بإنتاج الدراسات والبحوث المتعلقة بالمنطقة العربية، خصوصًا الواقع السوري، وتهتم بالتنمية الثقافية والتطوير الإعلامي وتعزيز أداء المجتمع المدني، ونشر الوعي الديمقراطي وتعميم قيم الحوار واحترام حقوق الإنسان، إلى جانب تقديم الاستشارات والتدريب في الميادين السياسية والإعلامية للجهات التي تحتاج إليها في المجتمع السوري انطلاقًا من الهوية الوطنية السورية.

يعمل مركز حرمون للدراسات المعاصرة لتحقيق أهدافه من خلال مجموعة من الوحدات التخصّصية (وحدة دراسة السياسات، وحدة البحوث الاجتماعية، وحدة مراجعات الكتب، وحدة الترجمة والتعريب، وحدة المقاربات القانونية) وعددٍ من برامج العمل (برنامج الاستشارات والمبادرات السياسية، برنامج الخدمات والحملات الإعلامية وصناعة الرأي العام، برنامج دعم الحوار والتنمية الثقافية والمدنية، برنامج مستقبل سورية)، ويمكن للمركز أن يضيف برامج جديدة بحسب حاجة المنطقة والواقع السوري، ويعتمد المركز آليات متعدِّدة في إنجاز برامجه، كالمحاضرات وورشات العمل والندوات والمؤتمرات والدورات التدريبية والنشر الورقي والإلكتروني.

الدوحة، قطر
+974 44 885 996
غازي عنتاب،تركيا
+90 342 326 5112
harmoon.org

المحتويات

ملخص 2

مقدمة 2

المبحث الأول: الغربة عن الوطن في الشعر العربي القديم 2

1- غربة المجتمع عند المعري 3

2- غربة المكان عند ابن دراج القسطلي 7

3- غربة الأسر عند الحمداني 11

المبحث الثاني: الغربة عن الوطن في الشعر العربي الحديث 16

1- الغربة الاجتماعية عند الجواهري 17

2- الغربة النفسية عند محمود درويش 20

المبحث الثالث: الغربة عن "سورية" عند طائفة من الشعراء السوريين 43

1- نزار قباني 43

2- محمد الماغوط 47

خاتمة 51

ملخص

تسعى هذه الدراسة لمقاربة علاقة الشعر بالوطن، وتكمن أهمية الدراسة في تبيان صور التعلق بالوطن والغربة عنه بين الشعر العربي قديمه وحديثه، من خلال مقارنة لنماذج شعرية قديمة وحديثة مابين غربة مكانية واجتماعية وسياسية ونفسية وغربة الأسر، ثم خصصّت المبحث الثالث لدراسة الغربة عن الوطن سورية عند طائفة من الشعراء السوريين على وجه الخصوص، ومن خلال هذه الدراسة يحاول البحث إعادة إحياء التراث الشعري المعبّر عن قيمة الوطن ومحبته، ودور الشعر في ذلك كله.

مقدمة

جاء معنى الوطن في المعاجم اللغوية بمعنى: مربض الإبل والغنم، ثم صار يعني المنزل الذي يتخذه الإنسان سواء أكان مسقط رأسه أم لم يكن، وهو كما ذكره ابن سيده: الوطن حيث أقمت من بلد أو دار، وقد توسع مفهوم الوطن فصار كل مكان ينزل فيه الإنسان ويعدّه مستقرًا ومقامًا ووطنًا، ووطن بالمكان وأوطن: أقام، وكل مقام أقام به الإنسان لأمر فهو موطن له.[1]

لعلّ الغريب عن الوطن يبدو مثل بقعة أرض منقولة بترابها ومائها وشجرها وطيرها من مكان إلى مكان آخر، بقعة منكمشة على جذورها وذكرياتها، بقعة تقدّس نفسها، بهذا المعنى تفسر الغربة عن الوطن، لما في ذلك من شدة التعلق به، فالغريب ينقل مع غربته الأمكنة التي عايشها، ليروي في غربته ظمأ الشوق والحنين إلى وطنه المعشوق.[2]

المبحث الأول: الغربة عن الوطن في الشعر العربي القديم

إنّ ظاهرة الغربة في الشعر لا تتولد من الجزئيات والتفاصيل، وإن كانت تسهم في بلورتها، بل تتولد من علاقة التأزم القائمة بين الشاعر والكون المحيط به، فهي ترتبط دومًا بالغربة وبالحزن وتبعث في بعض الأحيان إلى التذمر والإحباط؛ لأنها تجسد الانهيار الذي يعجز الشاعر عن التحكم فيه أو ترميمه، وفي هذا ما يعطيها قيمة ودلالة ومغزى درجة الاحتذاء بها كغيرها من تجارب الأنبياء والرسل، الذين عانوا في سبيل

---

[1] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ط1، (عمان: دار مجدلاوي، 2008م)، ص9.

[2] انظر: صلاح نيازي، الاغتراب والبطل القومي، ط1، (مؤسسة الانتشار العربي، 1999م)، ص 8-9.

تبليغ الدعوة ما عانوه، وإن ما يهم في ظاهرة الغربة هو حال الإنسان والموقف الذي يتخذه تجاه الحوادث والخطوب التي تعترض سبيله، انطلاقًا من صورة القدر أو المجهول، الذي لا رادّ له.[3]

ولما كان الشعر هو الارتباط بالشعور، والتعبير عنه من خلال المشاعر، كانت الغربة من الأحاسيس والموضوعات الشعرية كثيرة الدوران في شعرنا العربي قديمًا، فقد كان موضوع الابتعاد عن الوطن من القضايا المهمة التي عالجها الشعراء في أشعارهم، وقد شكلت قضية الأطلال اللبنة الأولى لهذا النوع من الشعر، فقد حفل الشعر العربي القديم بنماذج وصور معبرة عن غربة الشعراء الزمانية والمكانية، فضلًا عن النفسية, فالتعلق بالوطن يعبر عنه بالتعلق بالأهل والذكريات، فالشعراء حين غادروا بلادهم كانوا يغادرونها على كره وحزن، ومن ثم كانوا يحسون بالانكسار واللوعة والحزن؛ ذلك أنهم غادروا أشياء كثيرة، لا تقف عند الحدّ المادي المتعلق بالأمكنة فحسب، بل تبحر عميقًا لتعبر عما يعتلج في صدورهم من الولع، والشكوى للوطن، ولهذا سيقدم البحث في هذا المبحث نماذج مختارة من شعر الغربة عن الوطن في شعرنا العربي القديم، من صور متعلقة بالغربة عن غربة المجتمع، وغربة المكان، وغربة الأسر.

1- غربة المجتمع عند المعري

ذكر علماء النفس أنّ من أسباب الغربة ومظاهرها، العزلة الاجتماعية التي يراد بها "شعور الفرد بالوحدة والفراغ النفسي، والافتقاد إلى الأمان والعلاقات الاجتماعية الحميمة، والبعد عن الآخرين حتى وإن وجد بينهم، ويصاحب العزلة الشعور بالرفض الاجتماعي والانعزال عن الأهداف الثقافية للمجتمع، والانفصال بين أهداف الفرد وقيم المجتمع ومعاييره"[4]

إنّ الحديث عن هذه الغربة يقتضي التدليل بمعايير المجتمع التي كان الشاعر يراها غريبة لما فيها من ضياع إذ تقود إلى ضياع المعايير الاجتماعية الإنسانية، وذلك بسبب تغيير المبادئ في المجتمع الذي يؤدي إلى تمزق الروح بسبب التهافت على الرغبات والشهوات، بطلب لما في الدنيا، من دون العلايا، فالشاعر دعا إلى عدم الجلوس إلى أصحاب السفه والدنايا قائلًا:[5]

فَرَّجِ العيش من صفوٍ ورَنْق ودع شَجينَكَ من هند ودعد

ولا تجلس إلى أهلِ الدّنايا فإنّ خلائق السّفهاء تعدي.

فصورة الغربة الاجتماعية قد ظهرت مجسدة بانتشار المفاسد، وشيوع الكذب والنفاق، فهذه الصور كلها تمثل مظهرًا من مظاهر الظلم الاجتماعي، وتزيد المعري غربةً إلى غربته.

---

[3] حمة دحماني، ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا، رسالة ماجستير، (جامعة منتوري، الجزائر، 2006م)، ص25.

[4] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص 19.

[5] أبو العلاء المعري، لزوم ما لا يلزم (اللزوميات)، ج1، (بيروت: دار صادر، بيروت)، ص 358.

ولا يقف حد الغربة الاجتماعية عند المعري بمقاطعة الأصحاب من ذوي خصال السفه والدنايا، بل إنّه يجد في الاعتزال في بيته سلوكًا وفكرًا وأدبًا في فرضه على نفسه لتلك العزلة التي وجد فيها مخرجًا للنزوع إلى عالمه الوحيد وعبر عنها بقوله:[6]

تغيّبت في منزلي برهةً ستيرُ العيوب فقيد الجسد

فلمّا مضى العمر إلا الأقل وحُمَّ لروحي فراق الجسد

بعثت شفيعًا إلى صالح وذاكَ من القومِ رأي فسد

فالغربة التي هرب إليها الشاعر ووجد فيها الملاذ الوحيد هي ذاتها الحافظة للإنسان من كل ما لا يؤمن، فلا أمان إلا بها يقول:[7]

إذا نفردَ الفتى أمنت عليه دنايا ليس يؤمنها الخِلاطُ

فلا كذبٌ يُقال ولا نميمٌ ولا غلط يُخافُ ولا غَلاط

ولعلّ من أجمل صور تعبير الشّاعر عن الغربة الاجتماعية في عصره، وصفه لغربة الغدر وعدم الثقة والاحترام، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك، فالذين سخروا الدين لمصالحهم الخاصة فرضوا على الشاعر عدم احترامهم؛ لما اتصفوا به من الأساليب المنحرفة، قال فيهم:[8]

شكوتُ من أهلِ هذا العصر غدرهُمُ لا تُنكِرَنْ فعلى هذا مضى السّلف

وما اعترافي بعيب الجنس منقصةٌ والعينُ يُعْرفُ في آنافها الذّلف

أمسى النَّفاقُ دروعًا يُستَجَنُّ بها من الأذى ويقوّي سردها الحلفُ.

وبمثل هذه المعاني التي قادت الشاعر إلى غربته الاجتماعية، وصف هذه الحالة الاجتماعية التي عايشها في غربته، وهي أنّ الذين ساسوا الناس وتولوا أمورهم كأنهم شياطين في الطباع، فلا حزن أقسى ولا غربة أعظم من تلك الصفات المنبوذة والسيئة، وعبّر عنها بالقول:[9]

يكفيكَ حزنًا ذهاب الصّالحينَ معًا ونحنُ بعدَهم في الأوطان قُطَّان

إنّ العراقَ وإنّ الشّامَ من زمنٍ صِفرانِ ما بهما للمُلك سلطان

ساسَ الأنامَ شياطينٌ مسلطةٌ في كلّ حصر من الوالين شيطان.

---

[6] المعري، لزوم ما لا يلزم، ج1، 564.

[7] المعري، لزوم ما لا يلزم، ج2، ص 150.

[8] المعري، لزوم ما لا يلزم، ج2، ص154.

[9] المعري، لزوم ما لا يلزم، ج2، ص 505.

ويذكر الجاحظ أنَّ من أصدق الشواهد في حبّ الوطن أن يوسف عليه السلام لما أدركته الوفاة أوصى أن تُحملَ رمّتهُ إلى موضع مقابر أبيه وجده يعقوب وإسحق وإبراهيم عليهم السلام؛ وفي ذلك دليل على حبّ الوطن والرغبة في العودة إلى الموطن الأصلي حتّى لو كان ذلك بعد الموت. [10]

ولا تقتصر الغربة الاجتماعية بفقد الصالحين فقط، فمما لا شك فيه أنّ هذا الفقد يدلل على الغربة الاجتماعية إلا أنه ليس اللون الوحيد المعبّر عنها، فإن سجايا الفضل وصفاتها عند الناس ممن كملت بهم، وكانت صفاتهم قد شكلت لهم غربة، بل كانت سبب عدمهم، فالجامع بين الناس هو العودة إلى الأصل الترابي، فصاحب الفضل وحسن الخلق ممدوح بصفاته جيلًا بعد جيل، قال في قصيدة أخرى:[11]

وجدتُ سجايا الفضلِ في النّاسِ غربةً وأعْدم هذا العمر مغتربيهِ

وإنّ الفتى فيما أرى، بزمانه لأشبه منه شيمةً بأبيهِ

ووالدنا هذا التّرابُ، ولم يزل أبرَّيدًا من كلِّ منسبيهِ

يؤدي إلى من فوقه رزق ربّه أمينًا ويعطي الصَّونْ محتجبيهِ.

ثم إنَّ العودة إلى الذات بإثبات حقها وماهي عليه، هي منهج شاعرنا، فضوء الشمس لا يُحجَبُ، والذكرى لا تموت مهما طال بها الزمن، فظلم النّاس لقدره كان سببًا في غربته الاجتماعية، فقد وعدهم بما لم تستطعه الأوائل ممن سبقه، ثم يزيدها ادعاء الناقص للفضل، من دون اتصافه به، قال:[12]

وقدْ سارَذكري في البلادِ فمن لهم بإخفاء شمسٍ، ضوءها متكامل

يهمُّ الليالي بعض ما أنا مضمر ويثقل رضوى دون ما أنا حامل

وإنّي وإن كنتُ الأخيرَزمانه لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائل

وأغدوا ولو أنّ الصباح صوارم وأسري ولو أنَّ الظلامَ جحافلُ

وإنّي جوادٌ لم يُحلَّ لجامهُ ونصلُ يمان أغفلتهُ الصياقل

فإنْ كان في لُبسِ الفتى شرف له فما السّيفُ إلا غمده والحمائل

ولي منطقٌ لم يرضى لي كنه منزلي على أنّني بين السماكين نازل

ولمّا رأيتُ الجهلَ في الناسِ فاشيًا تجاهلتُ حتّى ظُنَّ أني جاهل

فواعجبًا؟ كم يدّعي الفضلَ ناقصٌ وواسفًا كم يظهر النّقصَ فاضل.

---

[10] انظر: عمرو بن بحر الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، ط2، (دار الرائد العربي، 1982م)، ص 42.

[11] المعري، لزوم ما لا يلزم، ج2، ص 627.

[12] أبو العلاء المعري، سقط الزند، شرح: أحمد شمس الدين، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م)، ص106.

وقد تشكل لوحة الرثاء عند شاعرنا غربة اجتماعية، فالعزلة عن المفقود نوع من الغربة الروحية المشمولة بالغربة الاجتماعية، فلا يعوّض عن المفقود شيئًا، ولا يحلّ محله وقعًا في القلب، فصوت المخبر للفقد، ليس كصوت البشير في الأمور كلها، فكيف بالفقد والموت غربةً، فالحياة كلّها تعب، ولا زيادة فيها إلا لمن يرغب بزيادة عناها وشدتها، ثم إنّ ساعة من ساعات الحزن بالفقد والغربة الاجتماعية لديه لتعادل كما نعلم أضعاف ساعات الفرح والسرور، وفي مثل هذه المعاني يذكر لنا قصيدته المشهورة التي يرثي فيها فقيهًا حنفيًا بقوله:[13]

غيرُ مجدٍ في ملتي واعتقادي نوحُ باكٍ، ولا ترنمُ شادِ

وشبيهٌ صوتَ النّعي إذا قيـ ـس بصوتِ البشيرِ في كلّ نادِ

أبكتْ تلكم الحمامةُ أم غـ ـنّتْ على فرع غُصنها الميّادِ؟

صاحِ هذي قبورنا تملأ الرُّحـ ـبَ فأينَ القبورُ من عهدِ عادِ؟

تعبٌ كلها الحياةُ فما أعجـ ـبُ إلا من راغب في ازدياد

إنّ حزنًا في ساعةِ الموتِ أضعا فُ سرورٍ في ساعةِ الميلادِ

خُلقَ النّاسُ للبقاءِ فضلّتْ أمّةٌ يحسبونهم للنّفادِ

ضجعة الموتِ رقدةٌ يستريحُ الـ جسمُ فيها، والعيشُ مثلُ السّهادِ

ولمّا كان انتقال الروح رمزًا من رموز الغربة الاجتماعية، جعل من ذلك تهذيبها لنفس غيره، فمن صلب الغربة الاجتماعية الخضوع لسلطة الإجبار، من دون أن يكون العاقل قابلًا لذلك، فما لا يصدقه العقل تكذبه تجربة الشاعر، فالعقل المنبع الوحيد لتحقيق سلطة الوجود من دون سلب لما تؤكده، قال في ذلك:[14]

يقولون: إنّ الجسمَ يُنقل روحهُ إلى غيرهِ حتّى يُهذبها النَّقلُ

فلا تقبلنْ ما يجبرونَكَ ضلَّةً إذا لم يؤيد ما أتوكَ به العقلُ

وليس جسومٌ كالنّخيلِ وإن سما بها الفرعُ إلا مثلَ ما نبتَ البقلُ

فعشْ وادعًا وارفقْ بنفسكَ طالبًا فإنَّ حُسام الهندِ ينهكهُ الصَّقلُ

لا ريب في أنّ الغربة الاجتماعية قد تبلورت من خلال صور الخلل الاجتماعية التي عاصرها، وعاشها الشّاعر إبّان تلك المرحلة الزمنية، فكانت صورة الغربة ملونة بين النفاق وعدم الاحترام والثقة، وتسخير

---

[13] المعري، سقط الزند، ص7.

[14] المعري، اللزوميات، ج2، ص480.

للدين لمصالح خاصة، وقد وجد الشاعر في العزلة والترك ملاذًا ينشد من خلاله الواقع المأمول، والمجتمع المنشود.

2- غربة المكان عند ابن دراج القسطلي

إنّ أماكن الألفة تدرج دائمًا تحتها أماكن التذكر، والحنين إليها، وذلك ما عبرت الدراسات الفلسفية عنه بمفهوم أنّ أماكن لحظات عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها الوحدة، واستمتعنا بها ورغبنا فيها وتآلفنا مع الوحدة فيها تظل راسخة في داخلنا؛ لأننا نرغب في أن تبقى كذلك، فمعايشة ابن دراج القسطلي لهذه الغربة المتمثلة بالبعد عن المكان قرطبة، ثم رحيله عنها بسبب الفتنة لم يؤدِّ إلى انقطاع الذكرى والشوق عنده، ولم يؤدِّ إلى نسيانها، فهو مرتبط بكيانها، وبأعماقها التي تمنحه الأمن والأمان.[15] وقد قيل لبعض الأعراب: "ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان، قيل له فما الذّلة؟ قال: التنقل في البلدان والتنحي عن الأوطان[16]

والملاحظ أنّ شعر هذا الشاعر الأندلسي مرتبط بالغربة ارتباطًا وثيقًا" فقد تميّز ابن دراج بكثرة شعره، فديوانه ضخم ويغلب غرض المديح على قصائده معظمها. إنّ هذه الأبيات أو القصائد التي اشتمل عليها الديوان يغلب عليها الحديث عن الغربة والاغتراب وألم الفراق والبعد عن الأحبة وعن الأولاد والزوجة، والحنين إلى الوطن، فلا نكاد نعثر على قصيدة قالها في المديح إلا وفيها، ذكر لألم الاغتراب والحنين"[17] "والجدير بالذكر أنّ مدائح ابن دراج انطوت على موضوعات أخرى كثيرًا ما زاحمت غرض المدح؛ وأهمها: وصف مواقف الوداع وفراق الأهل، وتصوير آلام الغربة ومشّاق الارتحال برًّا وبحرًا، ليلًا ونهارًا، والتعبير عن تجارب القلق والضياع وسوء الحال"[18]

إنّ الحنين إلى المكان يظهر عند ابن دراج القسطلي من خلال تذكره (قرطبة) ورغبته في العودة إليها زمن الفتنة في عهد الأمير المنصور العامري، ولو أن عهد هذا الأمير قد ولّى من سجل التاريخ إلا أنه ما زال ماثلًا في وجدان الشاعر، صورة حية، لا يجد الظل لها طريقًا، وكأنّ الأمس هو اليوم عنده، إنها صورة تظهر ماثلة في مخيلته كلما يمم وجهه شطر ملك وعهد جديد، فقد ابتعد عنها ووجد نفسه في مكان غير مكانه، وما زال

---

[15] انظر: غاستون باشلارد، جماليات المكان، غالب هلسا (مترجم)، اط2، (بيروت: لمؤسسة الجامعية للدراسات، 1984م)، ص 40.

[16] عمرو بن بحر الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، ط2، (دار الرائد العربي، 1982م)، ص38-39.

[17] أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط13، (القاهرة، دار المعارف، 1958م)، ص309.

[18] وسام قباني، عامريّات ابن دراج القسطلي، (دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2001م)، ص40.

البعد مكانيًا وليس بالحس والجسد، فهي قريبة منه، فكل موقع منها يشكل عنده محطة من محطات التذكر والحنين، يقول من البسيط:[19]

يا معهدًا لم يُضعْ عهدَ الوفاءِ له مُكسَّفُ النّورِ عافي القدرِ ضائعهُ

ولا ثنى عبر اتي عن تذكّرِهِ دهرٌ تقارعُ في صدري قوارعهُ

حسبي ضلوعٌ ثوتْ فيها مصائبهُ ومقلةٌ ربعتْ فيها مر ابعُهُ

سقاكَ مثلُ الذي عفى رباكَ عسى يُنبيكَ كيفَ غريبُ الرّحلِ شاسعهُ.

لله من وطنٍ قلبي له وطنٌ يبلى و أبلى وماتبلى فجائعهُ

لا يسأمُ الدّهرُ من شوقٍ يُطالعني منهُ ومن زفرةٍ منّي تطالعهُ

إنْ تُسعدِ اليومَ أشجاني نو ائحُهُ فكم وكم ساعدتْ شَجوِي سواجعهُ.

في ثنايا هذه الأبيات حنين وشوق عظيم للوطن مكانًا، ففيها نداء يصدح الآفاق للمكان الأليف المعهود المتروك، فالدهر لا يسأم من مطالعة أشواقه، فعهد الوفاء للمكان الوطن ما زال يرسم لوحة الغربة المكانية عند ابن دراج القسطلي، فالخيال مرتبط بالذاكرة، ويتداخل مع الأحاسيس التي تعتلج صدره للوطن، "فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا بذكريات ماضية"[20]

والمعهود أن الإنسان يشعر بعميق الأسى واللوعة، إن كان مفارقًا بلده، وينتابه الشعور بالحنين إليه والإحساس بفراقه، وفقد المكان هو إحساس عميق ينبثق من صميم وجدان المرء وعواطفه، وقد امتلك شاعرنا نضجا فكريا ووعيًا إنسانيًا بكل ما في كلمة الإنسانية من معنى الامتداد في الزمان والمكان، فالمفارق لوطنه تظل حزينة حزنًا عميقًا لوجود دواعي الحرمان، ولواعج الفقد من رؤية المكان الذي درج فيه صباه، وانحفرت ذكريات الصبا في نفسه، وذلك ما تستدعيه الذاكرة في لحظة حزينة أملاها عليه شعور الجماعة التي ينتمي إليها بالحرمان من الوطن المكاني، بالحنين إلى الاستقرار والمقام الثابت.[21]

إن الغربة المكانية تكاد تكون أكثر وضوحًا واتصالًا من خلال مناجاة الشاعر لتربة قرطبة، ففيها المنازل والأطلال، ومنها التفجع بالرحيل والفراق، فالمصائب قد لاحت له بعد الازدهار والنعيم، يقول من الكامل:[22]

---

[19] محمود علي مكي، ديوان ابن دراج القسطلي، ط1، (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، 1961م)، ص 138.

[20] غاستون باشلار،جماليات المكان، ص6.

[21] انظر: حمادة تركي زعيتر، جماليات المكان في الشعر العباسي، ط1، (دار الصادق الثقافية، 2013م)، ص 275.

[22] محمود علي مكي، ديوان ابن دراج القسطلي، ص 167.

واجنحْ لقرطبةٍ فعانقْ تربَها عنّي بمثلِ جو انجِي وتَر ائِي

حيثُ استكانتْ للعفاءِ منازلِي وهوتْ بأفلاذِ الفؤادِ نجائِي

ذُلُلًا تعسّفْنَ الدُّجى بأذلةٍ ولواغبًا جُبنَ الفلا بلواغبِ

وكواكبٌ ناءتْ بغُربتِها النَّوى فقضتْ مدامعُها بنوءِ الغاربِ

من كلِّ مفجوعٍ بترحةِ راحلٍ لم يُسْلِهِ طمعٌ بفرحةِ آيبِ.

على الرّغم من الحياة السعيدة التي عاشها الشاعر في سرقسطة من مباهجَ وتنعم، إلا أنّ ذلك لم يجعله يعيش هذا الحاضر المزدهر، كما كان عيشه في قرطبة، فشعور الحنين المكاني ظل يستولي على قلبه، فيزيده غربةً، يقول من الكامل:[23]

فهل أنتَ يا زمنَ الرّبيعِ مبلّغٌ بالمَغْرِبينِ أحبتي و أقارِبِي

أنّ الربيعَ لديَّ شيمةُ قاطنٍ وحيا الغمامِ عليَّ دِيمةُ دائبِ

من بعدِ ما غمَّ الصّباحُ لناظري واشتفَّ منّي البحرُ جَرعةَ شارب

عبقُ الرو ائحِ من نثيرِ غَدائري غدقُ السّحائبِ من فُضولِ مشَارِبِي

تغدو فتستملِي بديعَ محاسني وتروحُ تستقرِي نفيسَ غر ائبي

ممّا ترفُ به رياضُ حدائقِي ويفيضُ جوهرهُ عُبابَ غواربِي.

إن لمشهد الوداع وانهمار دمع العين فلسفة خاصة في التعبير عن ألم الفرقة المكانية، ففي قلب الشاعر لواعج وحنين إلى ذلك المنزل، فأيام الصبا ما زالت ماثلة حاضرة في ذاكرته المكانية، وهي التي تصدع الفؤاد، وتزيد الشوق والحنين، قال في ذلك:[24]

أهلَّ بالبينِ فانهلتْ مدامِعهُ و آنسَ النَّفْرَفاستكَّتْ مسامعهُ

وودّعَ المنزلَ الأعلى فأودعهُ في القلبِ لاعجَ بثٍّ لايوادعهُ

إنْ تسعدِ اليومَ أشجاني نَو ائِحهُ فكم وكم ساعدت شجوي سواجعهُ

وكم وفى لي فيه من حبيبٍ هوىً خلعْتُ فيه عذاري فهو خالعهُ

روضٌ لأيام الهوى ر اقتْ أزاهرهُ ومشرَبٌ للصّبا طابتْ مشارِعهُ

وكم صدَعْتُ فؤادَ الليلِ عن قمرٍ له هوىً في صميم القلبِ صادِعهُ

---

[23] محمود علي مكي، ديوان ابن دراج القسطلي، ص 170.

[24] محمود علي مكي، ديوان ابن دراج، ص 138- 139.

خالسْتُ فيه عيونًا غيرَهاجعةٍ والحزمُ عنّي غضيضُ الطَّرفِ هاجِعهُ

وليس أصعب وأقسى من الغربة المكانية المتعلقة بفقد الناس ممن نحب، فالرحيل عن هذه الدنيا ترتبط ذاكرته المكانية بالمَواطِن، والمقامات التي أقام فيها الأحبة قبل رحيلهم، فالرسالة التي تترجم هذه الغربة هي رسالة العبرات المنهمرة المرسلة، فالموت بعد الأحبة هو موت سريري روح تعيش في الدنيا بقلب يحس بالموت في كل لحظة ومشهد من ذاكرة مكانهم، قال:[25]

وَطِّنْ فؤادكَ إنْ كانَ الرّحيلُ غدا إنَّ الأسى إلْفُهُ من بعدهم أبدَا

و أندبُ لتشييعهم حرَّالزفيرِضُحىً و ابعثْ دموعكَ في آثاره مَددَا

والنَّفسُ إن لم تُمتْ من بِعدهم كمدًا ماتَ الوفاءُ عليها بَعدهُم كمدا

ولا يلبث الشاعر في غربته أن يستعين بالمدح استعطافًا للممدوح، فالصدق بالإجابة هو دافعه إلى ذلك، فكم يطلق من أدعية ولكن لا يجيب له أحد، ثم ينطلق بالسمع للممدوح وسيلة لبث شكواه وغرباه، ففي غمرات التناسي تبدأ الهموم والآهات بغربة الإجابة، قال:[26]

تسمَّعَ لدعوةِ ناءٍ غَريبِ كثيرِالدُّعاءِ قليلِ المُجيبِ

يهيمُ إليكَ بهمٍ شُجاعٍ ويجبنُ عنكَ بسترٍهَيوبِ

ويقتادهُ منكَ صِدقُ اليقينِ فيرتابُ منهُ بظنٍ كذوبِ

أيأذنُ سمعُكَ لي من بعيدٍ ولَحظكَ قد رابني من قريبِ؟

وكيفَ بأشجانِ قلبٍ عزيزٍ فيُسعدهُ لهوُ قلبٍ طَروبِ؟

فناداكَ من غمراتِ التَّناسي وناجاكَ في ظلماتِ الخُطوبِ

ببالغةِ للتَّراقي حدَتْها إليكَ وصَاةُ القريبِ المُجيبِ

"ومهما تعددت أنماط المكان وكثرت أنواعه، فإن ذلك لا يشتت رؤية الشاعر فيه. فلكل نوع سماته وحضوره في النصَّ الشعري، والذكريات تملأ على الشاعر حياته في لحظة ما، وتسيطر عليها حين تستيقظ من سباتها وتتنقل إلى ماضٍ يزخر بحياة جميلة. وغالبًا ما يفيض خيال الشاعر بصور الذكريات المليئة بالأسماء والحوادث. ولا يأتي المكان الذاكرتي إلى خيال الشاعر من دون مؤثر يدفع الشاعر إلى نظم أشعاره من عناصر الواقع، أو بدافع من أعماقه، الذي يظهر المكان بتنسيق عاطفي تنتظم فيه مظاهر الواقعية، فيكون لوجدان الشاعر الأثر الفاعل فيه"[27] وهذه هي حال شاعرنا في الحديث عن الغربة المكانية، فقد

---

[25] محمود علي مكي، ديوان ابن دراج، ص 354.

[26] محمود علي مكي، ديوان ابن دراج، ص 468.

[27] حمادة تركي زعيتر، جماليات المكان في الشعر العباسي، ص 271.

ظهر ذلك في طائفة من أشعاره كحنينه المكاني إلى قرطبة، وشعوره العميق بالغربة المكانية، والرغبة في العودة إليها، ثم كانت أكثر وضوحًا في عشقه لتربتها ومناجاته لها، واستنجاده بالدمع في مشهد الوداع وانهماره، وقد أبدع الشاعر في وصف غربته المكانية من خلال أسلوب المدح فقد كانت أشعاره التي مدح بها واستعطف من فقدهم يغلب عليها صور الغربة المكانية، وحبَّ الوطن بأماكنه المختلفة والجميلة كلها الماثلة في ذاكرته المكانية، فما تزال الغربة المكانية في شعر ابن دراج القسطلي ترسم لوحة في إثر أخرى، في مشهد من الحنين والوجع المستبد المرير الذي وجدناه في أبياته الجميلة الممزوجة بعبق العودة إلى الماضي في الروح والخيال من دون الجسد والمكان.

3- غربة الأسر عند الحمداني

إنّ غربة الأسر هي غربة محوطة بأقسى أنواع العذاب والحنين للوطن، فالبعد عن المكان المعهود، قد وسم بالبعد المكروه المقدر، المشوب بالظلم والشكوى والحزن العميق، وهذه الحال هي حال أبي فراس الحمداني في غربته في الحبس، فالإكراه على البعد هو ما حمله على هذه المشاعر المملوءة ألمًا وتوجعًا، فالشاعر في حبسه "غادرها على كره منه، ومن ثم أحس بالانكسار والحزن؛ لأنه غادر أشياء كثيرة، غير الأشياء المادية التي تحيط به"[28] فكانت فاجعة البقاء في الأسر أشدّ عليه من فاجعة الموت والفناء، ويزداد هذا الإحساس عمقًا، كلمّا طالت مدة الحبس غربة على الشاعر، وذلك ما ترجمته العيون السواكب بعد الفراق، فهناك مسافة شاسعة بين الروم والشام، فالجسد في بلاد الأسر والقلب في الشام، وقد صورها بقوله:[29]

إنّ في الأسرِ لصبًّا ... دَمعهُ في الخَدِّ صَبُّ

هو في الرّومِ مقيمٌ ... ولهُ في الشّامِ قَلبُ

مُسْتَجِدٌّ لم يُصادفْ ... عِوضًا عمّنْ يُحبُّ

وقد ذكروا أن أشعار أبي فراس الحمداني في السجن، قد بلغ عددها" ثلاثين قصيدة وخمس عشرة مقطوعة، تتناول فنون الشعر جميعها، من تصوير حالة الأسر، واستعطاف سيف الدولة لفكّ أسره، ومعاتبته على الإبطاء، ومعاتبة أصدقائه، والشكوى منهم لتنكرهم له في محنته، وتتضمن ألوانًا من حنينه إلى موطنه، وديارة وأهله، والفخر بنفسه، وبما قدّم من بطولات قبل أسره، وفي هذا الفخر تمتزج عزة

---

[28] عبده بدوي، «الغربة المكانية في الشعر العربي»، **مجلة عالم الفكر**، الكويت، مج:15، ع1، ص184.

[29] خليل الدويهي، ديوان أبي فراس الحمداني، ط2، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1994م)، ص 48.

النفس وإباؤه وتجلده بألمه وحسرته وأساه"[30] قال وقد ثقل من الجراح، التي نالته، وهو أسير، وكتب إلى والدته، يعزيها:[31]

مُصابِي جليلٌ والعزاءُ جميلُ وَظَنّي بأنّ اللهَ سوفَ يُديلُ

جراحٌ وأسرٌواشتياقٌ وغربةٌ أُحَمّلُ! إنّي بعدها لَحَمولُ

و إنّي في هذا الصباحِ لصالحُ ولكنّ خَطبي في الظّلامِ جليلُ!

وما نالَ مني الأسرُما تريانِهِ ولكنني دَامِي الجِراحِ عليلُ

جراحٌ تحاماها الأُساة مَخُوفَةٌ وسُقمانِ بادٍ منهما ودخيلُ

وأسرٌأقاسيه وليلٌ نجومهُ أرى كلَّ شيءٍ غيرهنَّ يزولُ

وقد أخرج الشاعر الزمن من مفهومه العام والصحيح إلى الطول والاستطاعة الممقوتة، فالساعات قد طالت به لتزيد من شعور الغربة وحب الوطن شوقًا وتعلقًا، فلا يسرُّه ذلك ولعل الإنسان لا يحس بطول الوقت إلا في حالات معينة ومن أصعبها وأكثرها وقعًا غربة الحبس، فالزمن في ذلك الموضع كمشي سلحفاة على الرمال، فالحسرة لم تعد تجدي نفعًا بعد فقد الخلان والأحبة، وبكاء أم لا يفتر كمدًا وشوقًا، قال في ذلك:[32]

تطولُ بي السّاعات وهي قصيرةٌ وفي كلِّ دهرٍ لا يسرُّكَ طولُ

تناسانيَ الأصحابُ إلاّ عُصَيبةً ستلحقُ بالأخرى غدًا وتحولُ

فيا حسرتي مَن لي بخلٍّ مو افقٍ أقولُ بشجوي مرةً ويقولُ؟!

وإنّ وراءَ السترِأُمًّا بكاؤها عليَّ وإن طال الزمانُ طويلُ!

ومن عادة الشعراء الهرب إلى الطبيعة في حالة الشكوى والحزن العميق، ومخاطبة الطيور وغيرها لبث الشكوى، فلم يعد للشاعر من حيلة إلا أن يطلق رسالة إلى جارته الحمامة لتشعر بحالة في غربة أسره، فالدهر لا ينصف بينها في حريتها وبينه في غربته وحبسه، فلا عدل بين محزون قد اعتلجت الهموم والأشواق صدره، وطليق قد ضحكت نواجذه وارتسمت على شفاهه البسمة، وهي صورة تكاد تكون أكثر الأشعار تعبيرًا عن تجربة الغربة في الحبس لديه:[33]

---

[30] النعمان القاضي، أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي، (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1982م)، ص338.

[31] خليل الدويهي، ديوان الحمداني، ص 252.

[32] خليل الدويهي، ديوان الحمداني، ص 254.

[33] خليل الدويهي، ديوان الحمداني، ص 282.

أقولُ وقد ناحتْ بقربي حمامةٌ أيا جارتا هل باتَ حالكِ حالي

معاذ الهوى ماذقتِ طارقةَ النّوى ولا خطرتْ منكِ الهمومُ ببالِ!

أتحملُ محزونَ الفؤادِ قوادمٌ على غصنٍ نائي المسافةِ عالِ؟

أيا جارتا ما أنصفَ الدّهر بيننا! تعالي أُقاسمكِ الهمومَ تعالي!

تعالي تري روحًا لديّ ضعيفةً تردَّدُ في جسمٍ يعذّبُ بالِ!

أيضحكُ مأسور وتبكي طليقةٌ ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالِ؟

لقد كنتُ منكِ بالدّمعِ مقلةً ولكنَّ دمعي في الحوادثِ غَالِ!

ولم تكن غربة الحبس مجالًا لقتل الإرادة والعزيمة لدى الحمداني، فقد خصص نفسه بأشياء جعلت من ترحه وألمه فرحًا بما فعل، وبما اتصف به من مديح الخصال والأفعال، فقد حلَّ عقدًا عجز عن حلها كثير من الناس، وكأنَّ الروم لم يأسروه، بل كان هو آسرهم والمذل لهم، فقد تسلح بالخضوع والاستسلام لإرادة الله سبحانه، بما قسم له وما وقع فيه، فالله قد شاء نشر محاسنه التي عُرف بها، قال متحدثًا عن أسره وسجنه وغربته:[34]

ولله عندي في الإساروغيرِه مواهبُ لم يخصصْ بها أحدٌ قبلي!

حللتُ عقودًا أعجزَالنَّاسَ حلَّها وما زالَ عقدي لا يُذَمُّ ولا حَلّي

إذا عاتبني الرّومُ كفَّرَصِيدُها كأنَّهمُ أسرى لديَّ وفي كبلي

وأوسعُ أيامًا حللتُ كرامةً كأنّي من أهلي نُقلتُ إلى أهلي

فقلْ لبني عمي و أبلغْ بني أبي: بأنّي في نعماءَ يشكرُها مثلي

وما شاءَ ربي غيرَنشرِمحاسني وأنْ يعرفوا ما قد عرفتُ من الفضلِ

غير أن جراح الغربة والشكوى والألم عند أبي فراس لم تقف عند ذلك، فقد تلونت الغربة واصطبغت بصبغة الرثاء المرير المركب بفقد تلك الأم العظيمة التي كانت تشاطره المصاب والحزن في غربته، فلم يكد يسمع بموتها حتى انطلق لسانه بأعظم صور الرثاء لفقدها ومحبتها، فحرام على نفس مشتاق ملوع لحبِّ الوطن أن يشعر بسرور وفرحة بعد موتها، تلك الأم الجليلة التي ذاقت المنايا والرزايا لفقده ابنها في الأسر، فقد غلبت الحسرة على أمه، فماتت لفقده، قال يرثيها:[35]

---

[34] خليل الدويهي، ديوان الحمداني، ص 283.

[35] خليل الدويهي، ديوان الحمداني، ص 161- 162.

أيا أُمَّ الأسيرِ، سقاكِ غيثٌ بكرهٍ منكِ ما لقي الأسيرُ!

أيا أمَّ الأسيرِ، سقاكِ غيثٌ تحيَّرَ، لا يقيمُ ولا يسيرُ!

أيا أمَّ الأسيرِ، سقاكِ غيثٌ إلى مَنْ بالفدا يأتي البشيرُ؟

أيا أُمَّ الأسيرِ لمن تربّي وقدمتِ الذَّوائبَ والشُّعورُ؟

إذا ابنُكِ سارَ في برٍّ وبحرٍ فمن يدعولهُ، أو يستجيرُ؟

حرامٌ أنْ يبيتَ قريرَ عينٍ! ولؤمٌ أن يلمَ به السّرورُ!

وقد ذُقتِ المنايا والرز ايا ولا ولدٌ لديكَ ولا عشيرُ

أيا أماهُ كم همٍّ طويلٍ مضى بكِ لم يكن منهُ نصيرُ!؟

أيا أمّاهُ كم سرٍّ مصونٍ بقلبكَ ماتَ ليسَ لهُ ظهورُ؟!

أيا أمّاهُ كم بشرى بقربي أتتكِ ودونَها الأجلُ القصيرُ؟!

لمن أشتكي؟ ولمن أناجي إذا ضاقتْ بما فيها الصدورُ؟

نُسلَّى عنكِ: أنَّا عن قليلٍ إلى ماصرتِ في الأخرى نصيرُ.

ولا تقف الغربة بأبعادها النفسية والتأثيرية في أبي فراس عند حدّ الغربة وحدها، بل تتعداها إلى العتب والشكوى، وذلك مما لاقاه من رغبة أهله بفقده، فالشاعر في هذه الغربة القاسية لم يجد مهربًا من بث شكواه إلى الله لسوء ما لحقه منهم ومن رغبتهم في فقده، فذلك سفاهة لا سفاهة بعدها، وعلى الرغم من ذلك لم ينس عهد الوفاء والمحبة والخير لهم، في حين أرادوا كراهية خلاصه من الأسر؛ فقال:[36]

تمنَّيتمُ أنْ تفقدوني و إنّما تمنَّيتمُ أن تفقدوا العزَّأَصْيدا

أَمَا أنا أعلى من تعدُّونَ هِمَّةً؟ وإنْ كنتُ أدنى مَن تعدُّونَ مَولِدا

إلى اللهِ أشكو عصبةً من عشيرتي يسيئونَ لي في القولِ غيبًا ومشهدا

يودون أنْ لا يبصروني سفاهةً ولو غِبتُ عن أمرٍ تركتهمُ سُدى

فلا تعدوني نعمةً فمتى غدتْ فأهلي بها أولى وإن أصبحوا عِدَا

و إنّي بخيرٍ أنْ لقيتُ بهم فتىً كريمًا مُطاعًا في العشيرةِ سيّدا

[36] خليل الدويهي، ديوان الحمداني، ص 85-85.

وعلى قدر شوق الشاعر، إلا أنه كان يبث شكواه في غربة إلى السجن إلى سيف الدولة ليخلصه من غربته، فهو قليل النوم، كثير التفكر والتطلع إلى العودة والخلاص، فجفنه قريح، وتحوطه الخطوب والأهوال مما يلاقيه من عذاب الغربة والأسى فكتب إلى سيف الدولة يخاطبه قائلًا:[37]

دعوتكَ للجفنِ القريحِ المسهدِ لديّ وللنومِ القليلِ المُشرَّدِ

وما ذاكَ بخلًا بالحياةِ وإنّها لأَوّلُ مبذولٍ لأولُ مُجتدِ

وما الأسرُ ممّا ضِقتُ ذرعًا بحملهِ وما الخطبُ ممّا أنْ أقولَ له: قَدِ

ولستُ أبالي إنْ ظفرتُ بمطلبٍ يكونُ رخيصًا أو بوسمٍ مُزوَّدِ

ولكنني أختارُ موتَ بني أبي على صهوات الخيلِ غيرَ مُوَسَّدِ

ومن لواعج الشوق والحنين إلى الوطن ذكر الشاعر للمواطن التي يلتهب القلب شوقًا إليها ويشعر بغربة عميقة وبحنين إلى العودة إليها، فأيها يذكر فلا مجال للتفريق بالشوق والحنين إلى حلب أومنبج فكلاهما له وقع بالغربة والحنين لديه، قال يصف أسره ويذكر أهله ويتشَّوقُ إلى أحبابه "من مجزوء المتقارب"[38]

لأيكم أذكرُ؟ وفي أيّكم أَفْكَرُ؟

وكم لي عليَّ بلدتي بكاءٌ ومُستَعبَرُ؟

ففي "حلب" عُدَّتي وعِزّي والمفخَرُ

وفي "منبج" مَنْ رضاهُ أنفَسُ ما أَذخَرُ

وأصبيةٌ كالفراخِ أكبرهمْ أصغرُ

وقومٍ ألفناهمُ وغصنُ الصِّبا أخضرُ

فحزني لا ينقضي ودمعي ما يفترُ

وما هذه أدمعي ولا ذا الذي أضمرُ

ولكن أُداري الدُّموعَ وأسترُ ما أسترُ

مخافةَ قولِ الوشاةِ مثلكَ لا يصبرُ.

ولم تكن الغربة بابًا من لنسيان الشاعر لجميل فعله في الشام مع من كان يعمل عنده، فعلى الرغم من كثرة الغدر والخيانة بين الناس إلا أن الوفاء بحسن الصنيع يترنم في ذاكرة الشاعر فيهيم في الغربة، فهو

---

[37] خليل الدويهي، ديوان الحمداني، ص 96.

[38] خليل الدويهي، ديوان الحمداني، ص 166.

الوالد لهما، فلا يبقى في الذاكرة الإنسانية إلا حسن الفعال، فقد كتب إلى غلاميه "صافٍ" ومنصور" وهو في الأسر حبيسًا:[39]

يا خليليَّ بالشّامِ أفيقا — هل تُحسَّانِ لي رفيقًا رفيقا؟

كثرَ الغدرُ والخيانةُ في النّا — س فما أنْ أرى صديقا صدوقا!

قلَّ أهلُ الوفاءِ و اتّبعَ النّا — سُ من الغدرِ والجفاءِ طريقا!

لا رعى اللهُ يا خليليَّ دهرًا — فرّقتنا صروفُهُ تفريقا

كنتُ مولاكما وما كنتُ إلا — والِدًا محسنًا وعمًّا شفيقا

فاذكراني! وكيفَ لا تذكراني — كلّما استخونَ الصّديقُ الصّديقا!

بتُّ أبكيكما وإنَّ عجيبًا — أنْ يبيتَ الأسيرُ يبكي الطليقا!

ولا بد من القول: "يبقى الشعر كائنًا حيًا تتعدد مكوناته، ومقوماته وأهدافه وأغراضه، كما تتعدد مواقع التأمل فيه ومساقط النظر إليه، هذا علاوة على أنه يترعرع في بيئات متفاوتة السمات والملامح، وينبق في نفوس متباينة الأهداف والمطامح"[40] وهو أسلوب الشاعر في حديثه وتصويره لغربته في الحبس، فالنفس المغتربة مملوءة بالحزن والحنين إلى الوطن، وتتطلع إلى العودة إليه، وهذا ديدن العشاق والمحبين لأوطانهم في كل عصر من العصور، وفي كل مكان من الأمكنة التي يغتربون فيها.

المبحث الثاني: الغربة عن الوطن في الشعر العربي الحديث

تظهر الغربة في أوقات الاضطراب والقلق وعدم استقرار الفرد بسبب الأوضاع السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو جميعها معًا، كما حدث مع شعراء المهجر في عصرنا الحديث.

يرصد هذا المبحث معاني الغربة الشعرية في الشعر العربي الحديث في نماذج من شعر شعراء العصر الحديث، بدءًا بالغربة الاجتماعية عند الجواهري، والغربة النفسية عند محمود درويش، وكذلك سيقف هذا المبحث على الغربة السياسية عند أحمد مطر، وذلك من خلال عرض لأشعارهم التي عبّروا من خلالها عن نماذج غربتهم بصورهم الشعرية ما بين ظاهرة وعميقة.

---

[39] خليل الدويهي، ديوان الحمداني، ص 225-226.

[40] جميل علوش، «النظرة الجمالية في الشعر بين العرب والأفرنج»، **مجلة عالم الفكر**، مجلد 29، العدد الأول، 2000م، الكويت، ص 243.

1- الغربة الاجتماعية عند الجواهري

من الطبيعي أن يكون المجتمع البشري حجر الزاوية في كل عمل فني؛ فالإنسان ليس شيئًا منفصلًا عن مجتمعه، ولكنه حجر في مجموعة البناء الإنساني؛ وهو بصفته هذه يتفاعل حتما مع كل من حوله، يتفاعل مع ذويه في المنزل، ومع رفاقه وجيرانه في الحي، ومع الناس في القرية والمدينة، ويتفاعل كذلك مع البيئة العامة في وطنه كله، كما يتفاعل مع حوادث العالم بأسره وتطوره ومدنيته وحضارته؛ إنه يتأثر بالنكبات الفردية والعامة، وبالحوادث السياسية والاجتماعية في وطنه، وكإنسان يتألم مع المتألمين، ويفرح مع الفرحين، يحس بسعادة السعداء وشقاء الأشقياء، وهذا هو حال الإنسان العادي، فكيف إذا كان هذا شأن الأديب فهو أحق بذلك؛ لأن الأديب لا عدّة له غير الاحساس المرهف، والتعبير الجميل، والدليل الصادق، والمرشد الحكيم، تلك هي رسالته الكبرى، وذلك هو سبيله الأول.[41] فالسكوت في معرض الحديث عن الحقوق هو غربة تقيد الحرية في التعبير، فالثورة على الشعور بالغربة الاجتماعية لا بد أن تفعل فعلها، وتؤثر تأثيرها الحقيقي فيه، قال في قصيدته ثورة وجدان:[42]

سكّتُ حتّى شكتني غرُّ أشعاري	واليومَ أنطقُ حرًّا غيرَ مهذارِ
سلّطتُ عقلي على ميلي وعاطفتي	صبرًا كما سلّطوا ماءً على نارِ
ثُريا شعورُ على ضيمٍ تكابدهُ	أوْلا فلستَ على شيءٍ بثوّارِ
وقَّعتُ أنشودتي والحزنُ يملؤها	مهابةً، ونياطُ القلبِ أوتاري
في ذمةِ الشّعرِ ما ألقى وأعظَمُهُ	أنّي أغنّي لأصنامٍ وأحجارِ
الشّعبُ شعبي وإن لم يرضَ مُنتَبَذٌ	والدّارُ رغمَ "دخيلٍ" عابني داري
لو في يدي لحبستُ الغيثَ عن وطنٍ	مستسلمٍ وقطعتُ السلسلَ الجاري
وكيفَ يُسمعُ صوتَ الحقّ في بلدٍ	للإفكِ والزّورِ فيهُ ألفُ مِزمار.

ولعلّ الغربة الاجتماعية تكاد تكون أكثر وضوحًا في فلسفة الدهر، الذي يتناوب بين الغالب والمغلوب، في زمن تكاد الرحمة أن تنقطع من قلوب الناس وتهرب من صدورهم، فقد وُسِّدَ الأمرُ والحكم لغير صاحبه المستحق له، وكيف لا يكون العجب لذلك؟ فقد أصبحت المنافع في ذروة المدح، وما عاب مذمومًا، ولسان الحال يقول: إنَّ ابن آدم أصبح ثعلبًا في المكر والدهاء والخديعة، فالشاعر وجد في المجتمع ظلما وقسرًا وحبًا للذات لا نظير له، قال في قصيدته الأنانيّة:[43]

---

[41] انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ط3، (مصر: دار المعارف، د.ت)، ص203-204.

[42] نجاح عطار، الجواهري في العيون من أشعاره، ط4، (دار طلاس للطباعة والنشر، 1998م)، ص 77.

[43] نجاح عطار، الجواهري في العيون من أشعاره، ص115-116.

أرى الدّهرَ مغلوبًا ضعيفًا وغالبًا فلا تعتبَنْ لا يسمعُ الدّهرُ عاتبا

ولا تكذبَنْ ما في البريّةِ راحمٌ ولا أنتَ فاترُك رحمةً عنك جانبا

تمكّنَ ذو طولٍ فأصبحَ حاكمًا وجُنّبَ مدحورٌ فأصبحَ راهبا

ولو رمُتُ للعورات كشفًا أريتُكم من النّاس حتّى الأنبياءِ عجائبا

أريتكم أنّ المنافعَ صُوِّرَتْ محامدَ والحرمانَ منها معايبا

أريتكم أنّ ابنَ آدمَ ثعلبٌ يُماشيكَ منهوبًا ويغزوكَ ناهبا

لحفظِ الأنانياتِ سُنّتْ مناهجٌ على الخلقِ صُبَّتْ محنةً ومصائبا

يجرُّ سياسيٌّ عليها خصومَه ويُدركُ دينيٌّ بهنَّ المطالبا

ولا أعرفَ التاريخَ يهتاجُ ساخطًا عليّ ولا الوجدانَ يرتدُّ غاضبا

فما كانتِ الأعذارُ إلّا لخاملٍ وما كنتُ إلا طامحَ النّفسِ واثبا

دعوني دعوني لا تهيجوا لواعجي ولا تبعثوا منّي شجونًا لواهبا.

في حقيقة الغربة الاجتماعية لا بد من عودة للذات ومقارنتها بما يحوط بها من مفاسد الأخلاق الاجتماعية، فالعمر والأشهر والأيام تمضي من دون عودة، والنفس تخاطب صاحبها بلوم عمّا فعل أصحاب الأخلاق الذميمة، ففي ذلك بلاء عظيم على مجتمع أحاطت به هذه الأهوال كلّها، قال في قصيدته المآسي في حياة الشعراء:[44]

مضتْ زهرةُ العمرِ التي يحسبونَها هي العمرُ لا عودًا مع الشيب ذاويا

وراجعتُ في هذا السّجلِ فصولَهُ أقلّبُ أيّامًا به ولياليا

أحاسبُ نفسي كيف ألفَتْ يبيسة ضروعًا سقتْ وغدًا وغِرًّا وجافيا

وعما أفادتْ من بلادٍ تكالبتْ على الغُنم وارتّدتْ سِباعًا ضواريا

ولكنني آسى لأخلاقٍ عُصبة تعدُّ المزايا الطيّبات مساويا

ترى كلَّ مرهوبِ الشذاة عدوَّها وكلَّ رخيِّ العودِ خِلًّا مُصافيا

وهذا بلاءٌ يُمطرُ الشَّرَ مُنذرًا وهذا وباءٌ يَجرفُ الشعبَ غاشيا.

(44) نجاح عطار، الجواهري في العيون من أشعاره.. ص 168.

على أنَّ الحقد والكراهية قد جعلت تسيطر وتستولي على القلوب، فتصبغها بصبغتها، وتصنع منها نسيجًا من الغربة المضاعفة، فغربة الدار هي أقل وقعًا على صاحبها من الغربة الاجتماعية في بلد يحمل الضغينة لساكنيه، قال في قصيدته أرميت العود فانكسر:[45]

يا غريبَ الدّارِ في وطنٍ بهداةٍ قبله كفرا

بدمٍ سوّى لهم حُفرا وبوردٍ كلل الحُفرا

راجمًا حقدًا وموجدةٍ شجرًا يُهدي لها الثمرا.

في صميم الغربة الاجتماعية لا ينسى الشاعر التذكير بعودة إلى الزمن بما فعل الأجداد، من محافل وبطولات، ففي تلك الصور والعبارات يبث الشكوى لعلها تحفف عنه ألم غربته، قال في قصيدته يا دجلة الخير:[46]

يا نازحَ الدارِ ناغَ العودَ ثانيةً وجُسَّ أوتارهُ بالرّفقِ واللينِ

لعلَّ نجوى تداوي حرَّ أفئدةٍ فيها الحزازاتُ تغلي كالبراكين

وعلَّ عقبى مناغاةٍ مُخففةً حمّى عناتر" صفينِ" و"حطين".

الهموم على الغريب كالغيم فلا يجاريها في الصدر شيء، فهي جمهر يلتهب كالمرجل، فلا يفتر القلب عن طلب الثأر من الدهر الظالم ليس بذاته، بل بفعل الناس في هذا العصر، فمن يجير الغريب في غربته المنشودة لما رأى من الظلم وترك الأهل الخلان، فغربته هي الدار التي لاذل فيها بعيدًا عمّا وجد قبل غربته، والشعر هو الملاذ الوحيد لنشر صور العذاب المرير، فلا أجمل من حياة العسر واليسر بعيدًا عمّا يجده منهم، قال في قصيدته يا غريبَ الدار:[47]

من لِهمٍ لا يُجارى ولآهات حيارى

ولمطويٍّ على الجمـ ـرِ سِرارًا وجهارى

طالبًا ثأرًا لدى الدّهـ ـرِ الذي يطلبُ ثارًا

مَن لناءٍ عافَ أهلًا وصِحابًا وديارًا

تَخِذَ الغربةَ دارًا إذ رأى الذّلَ إسارا

إذ رأى العيشَ مداراةَ زنيمٍ لا يُدارى

---

[45] نجاح عطار، الجواهري في العيون من أشعاره، ص 385.

[46] نجاح عطار، الجواهري في العيون من أشعاره، ص 434.

[47] نجاح عطار، الجواهري في العيون من أشعاره، ص 491- 492.

يا غريبَ الدّارِناغِ الشّعرَ يَمخضكَ الحِوارا

النديمُ السّمحُ إنْ راوغَ ندمانٌ وجارا

أحرفٌ عِشتَ و إيّا هنّ عُسرًا ويُسرًا.

الجبان ليس الضعيف في ساحات الوغى كما يبدو في الغربة، بل الجبان في نظره هو الذي لايطيق مقارعة الغربة وشدة الشوق وآهات الحنين، ولكن على الرغم من ذلك كله يدعو الشاعر نفسه إلى الثبات في هذه المواجهة وعدم الاستلام والخضوع بالتحدي، فالحال يرسم لوحة بين ضدين بين شبح وحقيقة، قال في قصيدته أطياف وأشباح:[48]

و إنّي والشجاعةُ فيَّ طبع جبانٌ في منازلةِ الفراقِ

ولي نَفسانِ طائرةٌ شعاعًا وأخرى تستهينُ بما تلاقي

أقولُ لها وقد خدرتْ ولانتْ تحدَّيْ من يُريدُكِ أن تُعاقي

وشدّي من حنانكِ للرز ايا وسوقيه لهنَّ ولا تساقي

فلا من خاضَها كُرهًا بناج ولا من خافها جُبنًا بباقي.

بمثل هذه المعاني الشعرية والصور التعبيرية عبّر الشاعر عن تجربته الشعريّة في معاني الغربة الاجتماعية وذلك من خلال الحديث عن شكواه وعدم الرضا عن الذات في مجتمع قد ثقلت به الأرض بما رحبت، وكان الناس فيه بوجوه مختلفة متلونة وطباع مليئة بالمكر والخديعة، فالهموم قد وجدت طريقها إليه من دون بحث مسبق، فانبرى قلمه يرسم لوحة الغربة الذاتية الاجتماعية، بأسلوب يفيض كلمات تحمل في طياتها سجل المعاناة.

2- الغربة النفسية عند محمود درويش

الغربة النفسية هي الشعور بالانعزالية والوحدانية والابتعاد عن مورث أو رؤى لا تتلاءم مع فهم الأديب والفنان، فنراها تأخذ ملامح وأوجه متعددة، فهي غربة ذاتية يعيش الشاعر في تجربته فيعبر عنها بشعر، فقد عاش محمود درويش الغربة النفسية في موقفه من السلطة السياسية، وسلطة الأعراف والتقاليد، وما تحمله هذه الغربة من دلالات باطنية، فالشاعر يريد من العقل الباطني أن يعطيه هدوءًا واستقرارًا في زمن اللاستقرار أو في زمن الشظايا الفكرية والعقائدة[49] فالوحدة والغربة النفسية تتبلور من خلال لفظ الوحدة، وفقد الأحبة بمشهد جعل فيه درويش المصباح والأشعار والوحدة بدلًا من الأصدقاء والأحبة،

---

[48] نجاح عطار، الجواهري في العيون من أشعاره، ص 515.

[49] انظر: جمال نصارى، «سايكولوجية الغربة في شعر محمود درويش»، 2014/12/11.

فأخذ العذاب يعتصر النفس ويعتلج الصدر ولكنه لا يجد من يناجيه غير وحدته، قال في قصيدته أغنية:[50]

وحيدًا أصنع القهوة

وحيدًا أشرب القهوة

فأخسر من حياتي

أخسر النشوة

رفاقي هاهنا المصباح والأشعار والوحدة

وبعض سجائر.... وجرائد كاللّيل مسودة

وحينَ أعود للبيتِ

أحسّ بوحشة البيت

وأخسر من حياتي كل ورداتي

وسرَّ النبعِ ... نبعِ الضوء في أعماق مأساتي

وأختزن العذاب لأنني وحدي.

لعلّ مظاهر الغربة النفسية عند درويش تظهر بصور عدة، صور تجعله يفكر بموت مقبل غير مدبر، فالعمر قصير، والأرض سياحة لهذا الغريب فيها، والخيانة عنوان، والغدر سلاح، فيخلص إلى مشهد تكّونه لفظة "كان"، قال في قصيدته صلاة أخيرة:[51]

يُخيّلُ لي أنّ عمري قصير

و أنّي على الأرض سائح

وأن صديقة قلبي الكسير

تخون إذا غبتُ عنها

وتشربُ خمرا

وتكتب شعرا

لغيري

---

[50] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، ج1، (رياض الريس للنشر، 2005م)، ص 39-40.

[51] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1، 168-169.

لأنّي على الأرض سائح

يخيّل لي أنّ خنجر غدر

سيحفر ظهري

فتكتب إحدى الجرائد:

"كان يجاهد"

ويحزن أهلي وجيراننا

ويفرح أعداؤنا

وبعد شهور قليلة

يقولون: كان!

لم يكن درويش بعيدًا عن الغربة النفسية في وطن قد ذاق منه الويلات والتهميش، في وطن جعل الجراح ديدننًا، فجرح الوطن ينزف من دون انقطاع فلا يشعر بالغريب إلا الغريب الذي يشبهه ويساويه، ويشاطره حزنه وترحه، فكم فتش وفتش عن وطن يريده كما يريد ولكن لا وجود له حتى ولو بتصوير بسيط، قال في قصيدته لا مفر:[52]

وطني! عيونك أم غيومٌ ذوّبت

أوتار قلبي في جراح إله!

هل تأخذنّ يدي؟ فسبحان الذي

يحمي غريبًا من مذلّة آه

ظلُّ الغريب على الغريب عباءةٌ

تحميه من لسع الأسى التيّاهِ

أعشاب قبر صار قبوَ ملاهِ

لأشمَّ رائحة الذي تنفسوا

مهدي.... وعطر البرتقال السّاهي

وطني! أفتّش عنك فيك فلا أرى

إلا شقوق يديك فوق جباه

[52] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1، ص 247- 248.

وطني أتفتحُ في الخرائب كوة؟

فالملح ذاب على يدي وشفاهي

مطر على الإسفلت يجرفني إلى

ميناء موتانا.... وجرحُك ناهِ.

إنّ من أجمل العبارات التي تمثل حقيقة الغربة النفسية عند درويش ما ذكره أبو حيان التوحيدي بقوله: "وأغرب الغرباء من صار غريبًا في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيدًا في محل قربه، الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا حوله، وإذا تنفس أحرقه الأسى والأسف، وإن كتم أكمده الحزن واللهف، إذا زار أغلقَ دونه الباب، وإن استأذن لم يرفع له الحجاب"[53] فكيف يعرفونه وقد تنكروا له ولو حمل جواز السفر في حقيبته، وكيف يعرفونه وقد أنكره البشر وعرفه الشجر، وكيف الانتماء بلا معرفة، فيا لصبر أيوب المتكرر، فالغربة قد فعلت فعلها مرتين، قال في قصيدته جواز سفر:[54]

لم يعرفوني في الظلال التي

تمتصّ لوني في جواز السفرْ

وكان جرحي عندهم معرضا

لسائح يعشق جمع الصور

لم يعرفوني، آه... لا تتركي

كفي بلا شمسٍ

لأن الشجر

يعرفني...

تعرفني كلّ أغاني المطر

لا تتركني شاحبًا كالقمر

عارٍ من الاسم، من الانتماء

في تربة ربَّيتها باليدين

أيوب صاح اليوم ملءَ السماء:

---

[53] عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، القاهرة، دار غريب، 2003م، ص7.

[54] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1، 371-372.

لا تجعلوني عبرة مرتين

يا سادتي! يا سادتي الأنبياء

من جبهتي ينشق سيف الضياء

ومن يدي ينبع ماء النهر

كل قلوب النّاس .... جنسيتي

فلتسقطوا عني جواز السّفر.

الصمت لغة نفسية في الغربة وهذا الصمت يعبّر عن مجهول يريد أن يظهره، ولكنه يعجز عن فهم كنهه، فالوحدة هي السلاح الوحيد في غربة الذات، السلاح الذي يحارب به الغريب الفناء للذات، في دفاع عن أشياء مفقودة، عن هواء ليس له، عن جدار ليس له، فكيف لنصر أنْ يتحققَ في جوّ من العذاب الذاتي والمعاناة؟ قال في قصيدته مديح الظل العالي:[55]

الآن والأشياء سيّدةٌ، وهذا الصّمت عالٍ كالذبابهْ

هل ندرك المجهول فينا؟ هل نغنّي مثلما كنّا نغنّي؟

سقطت قلاعٌ قبلَ هذا اليوم، لكن الهواء الآن حامضْ.

وحدي أدافعُ عن جدارٍليس لي

وحدي أدافع عن هواءٍ ليس لي

وحدي على سطح المدينة و اقفٌ..

أيُّوب ماتَ، وماتت العنقاءُ و انصرفَ الصّحابهْ

وحدي. أراود نفسيَ الثكلى فتأبى أن تساعدني على نفسي

ووحدي

كنتُ وحدي

عندما قاومت وحدي

وحدةَ الرّوح الأخيرة.

---

[55] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2، ص 342.

لم يكن درويش في غربته النفسية ينسى تلك العلامة القديمة الحديثة، التي كان يهرب إليها الشعراء في تصوير حجم المعاناة والغربة، إنه الدمع الذي يغسل الهموم والصدور، في ذكريات تجعل من الحنين إلى المنشود قريبًا ليس ببعيد، قال في قصيدته حوار شخصي في سمرقند:[56]

ألا تشربُ الدّمع وحدك

وحدك؟

أينَ رُخام ابن عبّاس؟

في الذكريات

و أين مدى القلب بعد أذان الغروب

و أين القبابُ، و أين الأزقةُ، والباب؟

ولا تعني الغربة النفسية أن ينطق الشاعر بلسان حاله فقط، بل ينطق بلسان حاله ولسان غيره، فالتجربة الشعرية عنده لا تقف عند الذات، فالحنين إلى الأمكنة جماعي، والرحيل في المأساة يحمل روح الجماعة في الغربة والألم، وعشق الوطن ما زال ماثلًا في عيون أصحاب الغربة النفسية، قال في قصيدة تأملات سريعة في مدينة قديمة وجميلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط:[57]

مَرَّةً

تصبح كُلُّ الأمكنهْ

زبدًا نطفو عليهْ

ونميلْ

كلما مالتْ بنا الرّيحُ

ونعتادُ بكاء الأحصنهْ

حينَ نعتاد الرحيلْ

مرّةً

تصبحُ كلّ الأزمنهْ

لحظة للقتل.

---

[56] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2، ص 414.

[57] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2، 469.

كم مُتنا وكم مُتنا

وكان الكهنهْ

خدمًا للسيف منذ المعبد الأوّل

حتّى آخر الثورات

والعاشقُ عبدَ السوسنهْ.

لا شفيع لصاحب الغربة النفسية إلا بالبحث عن الأنا، بعد فقدها، فكأنما هي الموت المحيط بصاحبه، هي مرآة تعكس ما يعتلج في الصدر، وتدور الكلمات في تفسير لا يعطي نفعًا، ولا يشفي جرحًا، كمن فَسرَّ الماء بعد الجهد بالماء، فرمز الخريف توسط الذات الغريبة، قال في قصيدته هذا خريفي كلّه:[58]

فتشتُ عن نفسي فأرجعني السّؤال إلى الوراء

لا شيء يأخذني إلى شيء. وينسدل الفضاء

عليّ مشنقةً، ويندسُّ المدى

في ثقب إبرةٍ عاشقه

فتشتُ عن نفسي: سلام للذين أحبّهم

عبثًا سلام؛ سلام للذين يضيئهم

جرحي..... هواءٌ للهواء. و أين نفسي بين ما

يسطو على نفسي ويرفعها رُخامًا للهباء

هذا خريفي كلّه

كلّ الشوارع أوصلت غيري إلى طرف السّماء

فأين أذهب، أين أذهب؟

كلّ الشوارع أوقعتهم في بياض خادعٍ بين البداية والنهاية

أميّ تعدُّ لي الصباحَ على طبق

من فضة أو سنديان. ليس في أميّ سوى

أُمٍّ هناك تنتظر.

---

[58] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3، ص35.

ونحن لا ننكر دور النفس في صناعة الأدب، وكذلك الأدب يصنع النفس، فالنفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس [59] فالغربة النفسية عند درويش لا تخرج بمضمونها عن التمازج والاختلاط التام بين العلاقة الحميمة بينهما، فهو يربط بين ألم الذات وعمق التجربة، فقد جسدَّ بشعره حقيقة الصورة بين غربة الذات والأنا، فبرز مشهد القتل للذات، في بحث عن إنسانيته عن شخصيته، ولكن الموت كان هو الجواب، قال في قصيدته آن للشاعر أن يقتل نفسه:[60]

آن للشاعر أن يقتل نفسه

لا لشيء، بل لكي يقتل نفسه

قال: لن أسمح للنحلة أن تمتصني

قال: لن أسمح للفكرة أنْ تقتصَ منّي

قال: لن أسمحَ للمرأة أن تتركني حيًّا على ركبتها

من ثلاثين سنة

يكتب الشعروينساني. وقعنا عن جميع الأحصنهْ

ووجدنا الملح في حبة قمحٍ، وهو ينساني. خسرنا الأمكنهْ

وهو ينساني أنا الآخر فيه

كلّ شيء صورةٌ فيه. أنا مرآته

كل موت صورةٌ. كلّ جسد

صورة. كل رحيل صورة. كلّ بلد

صورة. قلت: كفى متنا تماما أين إنسانيتي؟ أين أنا؟

قال: لا صورة إلا للصّور.

من أجمل صور التعبير عن الغربة النفسية التي تمثّل بها الشاعر في أشعاره، هي شخصية يوسف عليه السلام، تلك الشخصية التي عاشت حاضرة في ذاكرته، ولاقت من الغربة والأذى ما لاقى، فالنبذ محيط بها في غياهب جب الكره والعداوة والأنانية في قتل وتفنيد للآخر، "فهو في حالة تمرد بشعوره بالبعد عن الواقع،

---

[59] انظر: عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ط4، (مكتبة غريب، د.ت)، ص5.

[60] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3، ص 72-73.

ومحاولته الخروج عن المألوف، وعدم الانصياع للعادات والتقاليد السائدة، وهو تمرد على النفس، وعلى المجتمع"[61] قال في قصيدته "أنا يوسف يا أبي"[62]

أنا يوسفُ يا أبي. يا أبي، إخوتي لا يحبُّوني، لا يريدونني بينهم يا أبي.

يعتدون عليّ ويرمونني بالحصى والكلام.

يردونني أنْ أموتَ لكي يمدحوني. وهم أوصدوا بابَ بيتكَ دُوني.

هم طردوني من الحقلِ. هم سَمَّمُوا عنبي يا أبي.

حينَ مرَّ النّسيمُ ولاعبَ شعري غاروا وثاروا عليكَ.

فماذا صنعْتُ لهم يا أبي؟ الفراشاتُ حطّت على كتفي، ومالت عليَّ السّنابلُ، والطيرُ حطّتْ على راحتي، فماذا فعلتُ أنا يا أبي؟ ولماذا أنا؟!

إنّ من جمال اللغة الشعرية في الشعر العربي الحديث أنها أكثر من وسيلة للنقل والتفاهم؛ إنها وسيلة استبطان واكتشاف، تهز الأعماق وتحرك وتفتح أبواب الاستنباط، فنتاج الشاعر الحديث هو ثورة على المألوف، في الحياة والأفكار وطرائق التعبير جميعًا [63] فلقد جعل الشاعر من لغته وسيلة لجذب القارئ ونقله إلى عالمه الخاص، ليعيش تجربة الغربة النفسية وكأنه يعاصرها لحظة بلحظة، فهو يصور شخصية الإنسان العربية في ذاتها وشعورها، قال في قصيدته "أنا واحد من ملوك النهاية"[64]

أنا واحدٌ من ملوك النّهايةِ .... أقفزعن

فرسي في الشّتاء الأخير، أنا زفرة العربيّ الأخيرَةْ

لا أطلُّ على الآس فوقَ سطوحِ البيوتِ، ولا

أتطلّعُ حولي لئلاّ ير اني هنا أحدٌ كان يعرفني

لا أُطلُّ على الظّلِّ كي لا أرى

أحدًا يحملُ اسمي ويركضُ خلفي: خذْ اسمكَ عنّي

منْذ قبلتُ معاهدة "التيه" لم يبقَ لي حاضرٌ

---

[61] عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص42.

[62] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3، ص 159.

[63] انظر: أدونيس، علي أحمد سعيد، مقدمة للشعر العربي، ط3، (بيروت: دار العودة، 1979م)، ص79-80.

[64] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3، ص 277- 278.

الخوف يعشش في شخصية صاحب الغربة النفسية، فالخوف من كل شيء يجعله في تذبذب وانهيار، فلا وجود لشخصية الغريب في كل ما يقوم به، بل إنه يتجاوز حدَّ الأشياء ليكوّنَ اللغة أيضا التي هي صورة قائلها، اليأس هو نافذته المعتمة، والواقع أصبح وهمًا، قال في قصيدته" من أنا بعد ليل الغريبة"[65]

من أنا بعدَ ليلِ الغريبةِ؟ أنهض من حُلُمي

خائفًا من غموض النّهارِ على مرمرِ الدَّار، من

عتمةِ الشَّمسِ في الورد، من ماء نافورتي

خائفًا من حليبٍ على شفةِ التينِ، من لُغتي

خائفًا من هواء يمشَّطُ صفصافةً خائفًا، خائفًا

من وضوحِ الزَّمان الكثيفِ، ومن حاضرٍ لم يعدْ

حاضرًا، خائفًا من مروري على عالَمٍ لم يعدْ

عالمي، أيُّها اليأسُ كنْ رحمةً. أيُّها الموتُ كن

نعمةً للغريبِ الذي يبصرُ الغيبَ أوضحَ من

و اقعٍ لم يعدْ و اقعًا. سوف أسقطُ من نجمةٍ

في السّماءِ إلى خيمة في الطّريق إلى.... أين؟

مهما أحس الغريب بالبعد عن الواقع، لا بد في داخله من شغف العودة إلى الذات، وإلى الوطن الحبيب، الذي يتسلى بذكراه، ويعيش من خلاله جمال الحياة، فالنأي يزيد من غربة النفس واللوعة، والحنين إلى ما يصبو إليه هو ديدنه الوحيد، قال في قصيدة أخرى:[66]

... لا بدَّ من فرسٍ للغريبِ ليتبعَ قيصرَ، أو

ليرجعَ من لسعةِ النأيِ. لا بدَّ من فرسٍ للغريبِ

أما في وسعنا أنْ نرى قمرًا واحدًا لا يدُلُّ

على امرأة ما؟ أما كان في وسعنا أنْ

نميّزَ بين البَصيرَةِ يا صاحبي، والبصرْ؟

إنّ محمود درويش نموذج للشاعر الذي لم يتخلَّ في لحظة واحدة عن النشيد، والشاعر الذي لم يتوقف عن النمو في قصيدة تلوَ قصيدةٍ وكتاب بعدَ كتاب؛ ذلك لأنه آمن واجتهد في المزج بين عدالة الكفاح

---

[65] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3، ص 283.

[66] محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3، ص 347.

الإنساني وجمال صورة هذا الكفاح في القصيدة الحديثة، وسيبقى أثره في القصيدة العربية دائمًا ذاكرة جماليّة لشعب، وأجيال وعصر... غير قابل للنسيان[67] والشعر لعب جميل بالخيال واللغة، وهو يتيح الفرصة للتحرر إلى النزوع الإنساني، وهو منهج درويش في تعبيره عن مشاعره وغربته الذاتية بمشاهد تفيض قسوة وألمًا، ورغبةً في العودة إلى الذات، وإثباتها بعد نفيها في مجتمع قد همشها وجعلها تموت وهي على قيد الحياة، وتعيش في الظل بعيدًا عن ضوء الشمس، وترسم بالخيال عالمًا منشودًا ترنو نحوه في كل حين وفي كل مكان.

3- الغربة السياسية عند أحمد مطر إنّ السياسة تعني "تدبير شؤون الناس، وتملك أمورهم والرئاسة عليهم"[68] وهي أيضا "الفن المستعمل لحكم الأمم، وتنظيم الدولة من الداخل، وتنظيم التزاماتها مع الدول الأخرى"[69]

وقد عرف الشعراء العرب الشعر السياسي بوصفه غرضًا شعريًا منذ العصر الجاهلي، وما زالوا يمارسون كتابته وقوله إلى يومنا الحاضر، فالشعر مرتبط بالسياسة على مر التاريخ والعصور، فكم انبرت الأقلام للدفاع عن الحقوق والحريات، ولعل من أسباب استمرار هذا الغرض الشعري؛ الحوادث والأزمات والحروب التي أصابت (أرض العرب) التي ما تزال مستمرة إلى وقتنا الحالي، فكانت رسالة الشعراء في ذلك كله حمل القلم لإيصال رسالتهم من خلال أشعارهم، وهي تتمثل بالنصح والإرشاد، ورفع الهمم من أجل خدمة أوطانهم، والذود عنها في وجه العدو الداخل المتمثل بالظالم المستغل، أو الخطر الخارجي.[70]

وللشاعر أحمد مطر درب طويل مع الألم؛ نتيجة لمواقفه السياسية التي التزم بها، ونادى من أجل تحقيقها، مثل المطالبة بنشر الحرية، والتخلص من التبعية للأجنبي، وتحرير الأراضي العربية كافةً، فلا غرابة في انتشار ألفاظ السياسة بصورة كبيرة في شعره، ولا سيّما أنه عدّ نفسه سياسيًا، فهو فنان، ورأى أن معظم أهل الفن من السياسيين"[71] لهذا نجد طائفة كبيرة من أشعاره السياسية التي تمثل غربة سياسية عن تحقيق ما يصبو إليه، ويدعو إليه، قال في قصيدته "طبيعة صامتة"[72]

في مقلبِ القمامةِ

رأيتُ جثةً لها ملامحُ الأَعرابْ

---

[67] عادل محمود، الجوهرة المؤلمة محمود درويش، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011، ص 9.

[68] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مادة: سوس.

[69] أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ط5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1967م، ص3-4.

[70] انظر: عدنان قاسم، الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر: دراسة نقدية في أصالة الشعر، ط1، (المنشأة الشعبية للنشر، 1980)، ص63.

[71] مسلم مالك بعير الأسدي، لغة الشعر عند أحمد مطر، رسالة ماجستير، (جامعة بابل، 2007)، ص39.

[72] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ط1، (بيروت: دار الحرية، 2011)، ص12.

تجمّعت من حولها النّسورُ والذبابُ

وفوقها علامَهْ

تقول: هذي جيفةٌ

كانتْ تسمّى سابقًا كرامهْ

ومن مشاهد الغربة السياسية مشهد الإحاطة والوجوه الغريبة التي ترسم علامة التساؤل والحيرة من كنهها، فالشاعر يصور حالة الإنسان مسلوب الإرادة أمام أسر حتى للعقل والفكر، والتهمة المعهودة عندهم والوجه الآخر للفرار هي التشابه والتماثل، قال في قصيدة أخرى بعنوان "التهمة"[73]

كنت أسيرُ مفردًا

أحملُ أفكاري معي

ومنطقي ومسمعي

فازدحمَتْ

من حولي الوجوه

قال لهم زعيمهم: خُذوه

سألتهم:

ما تهمتي؟

فقيل لي:

تجمّعٌ مشبوه

لم تكن الإرادة وحرية الرأي وحدها هي الشغل الشاغل لفكر الأديب المناضل بشعره ضد كل نوع من أنواع الظلم، بل حتى التأقلم يفرض عليه فرضًا، وقد وظف الببغاء والصوت رمزًا للتعبير عما يريد، في مشهد وكأنما الأصفاد تحوط به من داخل الجسد وليس من خارجه، قال في قصيدته "ثورة الطّين"[74]

وضعوني في إناءْ

ثم قالوا لي: تأقلمْ

و أنا لستُ بماءْ

---

[73] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص 14.

[74] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص 18- 19.

أنا من طين السّماءْ

وإذا ضاق إنائي بنمّوي يتحطّمْ

خيّروني

بين موت وبقاءْ

بين أن أرقصَ فوقَ الحبلِ

أو أرقصَ تحتَ الحبلِ

فاخترتُ البقاءْ

قلتُ: أُعدَمْ

فاخنقوا بالحبلِ صوتَ الببَّغاءْ

وأمدّوني بصمتٍ أبديٍّ يتكلَّمْ

من رحم المعاناة تأتي الصورة الشعرية المتكاملة والقدرة العالية على الوصف ونقل المشهد والعذاب، فمسيرة الرفض قد ألبست ثوبًا للإنسان من المهد إلى اللحد، ثم إنَّ القيود قد فعلت فعلها فتمثلت بالعبودية اللامتناهية، فكيف لا يشعر بغربة سياسية تعزله عزلًا كاملًا عن كل حق ومطلب؟، قال في قصيدته "الأضحية"[75]

حين ولدتُ

ألفيتُ على مهدي قيدًا

ختموه بوشمِ الحريّهْ

وعبارات تفسيريّهْ

يا عبدَ العُزّى.. كنْ عبدًا

وكبرتُ، ولم يكبر قيدي

وهرمتُ، ولم أترك مهدي

ردّوا لي بعض الشخصيهْ

كيفَ تفورُ النّارُ بصدري

و أنا أشكو البردا؟

---

[75] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص 22.

كيف سيومضُ برقُ الثأربروحي....

ما دمتم تخشونَ الرّعدا؟

كيف أغني...

و أنا مشنوقٌ أتدّلى

من تحتِ حبالي الصَّوتيّهْ

كي أفهمَ معنى الحريّهْ

وأموت فداءَ الحريّهْ

أعطوني بعضَ الحريّهْ

لعل الشعور بالغربة يتطور تطورًا لحظويًا يجعل الشاعر يحسه عقوبة، والمعهود أن الوطن هو الحضن والأمان من كل هم وحزن، فهل الوطنية ذنب؟ أم أن الحق لعنة على صاحبه، يجعله يطوف البلاد بحثًا عن وطن قد قدم الروح له ثمنًا، قد استقر في القلب ذكراه، وقال في قصيدته "أحبّك"[76]

يا وطني

ضقْتَ على ملامحي

فصرتَ في قلبي

وكنتَ لي عقوبةً

و إنّي لم أقترفْ سواكَ من ذنْبِ

لعنتني..

واسمك كان سبني في لغةِ السَّبِ

ضربتني

وكنتَ أنتَ ضاربي... وموضعَ الضربِ

طردتني

فكنت أنتَ خُطوتي

وكنتَ لي دربي

---

[76] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص 28.

وعندما صلبتني

أصبحتَ في حبّي

معجزةً

حين هوى قلبي.... فِدى قلبي

يا قاتلي سامحكَ اللهُ على صَلبي

يا قاتلي.. كفاكَ أن تقتلني

من شدّةِ الحبِّ

في كل مشهد من مشاهد الغربة التي وقفنا عندها من خلال النصوص الشعرية السابقة وجدنا أن الحزن قد كان ملاذًا لكل غريب أحس مرارة الغربة ووجد منها الويلات، فالنص الشعري هو الذي يقود الشاعر في بحثه عن وطن ضائع، فكيف يشعر بكلمة حرفية وأحرف هذه الكلمة قد وضعت تحت الإقامة الجبرية، في أشعار قد ضاعت أوزانها واختلطت، قال في قصيدته "دمعة على جثمان الحرية"[77]

أنا لا أكتبُ الأشعارَ

فالأشعارُتكتبني

أريدُ الصّمتَ كي أحيا

ولكنَّ الذي ألقاهُ ينطقني

ولا ألقى سوى

على حزنٍ

على حزنٍ

أأكتبُ "أنني حرٌّ"

على كفني؟

أأكتبُ "أنني حرٌّ"

وحتّى الحرف يرسفُ بالعبوديهْ؟

رأيتُ شاعرًا يناضلْ

يرقعُ بالعروضِ نعلَ الوالي

---

[77] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص33.

رأيته مختنقًا

في عَرَقِ النّضال

مستفعلْنٌ مستفعلْنٌ مَفَاعِلْ

الأحلام هي التفسير النفسي لما نطمح إليه، فنفس الغريب في الوطن تتخيل وتحلم بإرادة محققة في كل منهج وفي كل مطلب، لكن القدر يحول في كثير من الأحلام السياسية من التحقق، فالاستيقاظ هو الملاذ الوحيد في الغربة السياسية من حلم قيده القدر الطويل، قال في قصيدته "حلم"[78]

وقفتُ ما بينَ يديْ

مُفسّرُ الأحلام

قلتُ له: يا سيّدي

رأيت في المنام

أنّي أعيشُ كالبشرْ

وأنّ من حولي بشرْ

وأنّ صوتي بفمي

وفي يدي الطعامْ

و أنني أمشي

ولا يتبعُ من خلفي أثر

فصاح بي مرتعدًا: يا ولدي حرام

لقد هزئتَ بالقدر

يا ولدي... نم عندما تنامْ

وقبلَ أن أتركَهُ

تسللتْ من أذني

أصابعُ النظامْ

واهتزَّرأسي و انفجرْ

[78] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص 35.

كلب الأثر هو رمز الالتصاق والمتابعة، وهذا الرمز جعله الشاعر دلالة على الاعتقال للذات في كل مكان وزمان، ولو لم تكن في السجن وبيدك الأصفاد، فأنت معتقل في جلدك، في البصمة وفي الحلم في الأنفاس، فالإنسان أصبح بذلك معلومات مدونة لا قيمة لها، وأي غربة سياسية أعظم من هذه، قال في قصيدته "أين المفر ؟"[79]

المرءُ في أوطاننا

معتقلٌ في جلدهِ

منذ الصغرْ

وتحتَ كلِّ قطرة من دمهِ

مختبئٌ كلبُ أثرْ

بصماته لها صورْ

أنفاسهُ لها صورْ

أحلامهُ لها صورْ

المرءُ في أوطاننا

ليس سوى إضبارةٍ

غلافُها جلدُ بشرْ

أينَ المفر؟

ومن مشاهد الغربة السياسية ضياع الكرامة والحقوق والقيم الإنسانية، في مشهد الإحاطة والاعتقال، والاقتياد من دون مسوغ وسبب، وهذه المشاهد التي أسقطها الشاعر ليبرهن من خلالها على غربة عميقة ومرارة تتفطر بها الأكباد، فالظلم قد لون كلّ شيء بلون السواد والظلمة، قال في قصيدته "المتهم"[80]

كنتُ أمشي.... والسلامْ

فإذا بالجُندِ قد سدّوا طريقي

ثم قادوني إلى الحبسِ

وكان الاتّهامْ:

---

[79] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص 43.

[80] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص56.

أنَّ شخصًا مرَّبالقصرِ

وقد سبَّ الظّلامْ

قبلَ عامْ

ثم بعدَ البحثِ والفحصِ الدقيقِ

علمَ الجندُ بأنَّ الشّخص هذا

كان قد سلّمَ في يومٍ

على جارِصديقي

لا يلبث الجلاد أن يأخذ في تصوير الغربة السياسية حيزًا، يتموضع من خلاله في هرم النص، ويؤدي دورًا كبيرًا في نقل الواقعة وكأنك تراها أمامك، فلم يبقي له يدًا، والروح قد فارقت الجسد على الرغم من بقائها فيه، فالعيش أصبح مليئًا بالحزن، والرحيل قد آذن فالإصباح في بلد والمبيت في بلد آخر، قال في قصيدته "مواطن نموذجي"[81]

يا أيُّها الجلادُ أبعدْ عن يدي

هذا الصفدْ

ففي يدي لم يبقَ يدْ

ولم تَعُدْ في جسدي روحٌ

ولم يبقَ جسدْ

كيسٌ من الجلدِ أنا

فيه عظامٌ ونكدْ

فوهتهُ مشدودةٌ دومًا

بحبلٍ من مسدْ

مواطنٌ قحٌّ أنا كما ترى

معلَّقٌ بين السّماء والثرى

في بلدٍ أغفو

وأصحو في بلدْ

---

[81] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص105.

وتظهر نفس الشاعر من خلال شعره مفعمة بالأسى والحزن، ولكنه بطبيعته الساخرة يمزج السخرية بالحزن، ويرى الشاعر أن سخريته غير مستغربة؛ لأنه من خلال قراءته لواقع شرائح المجتمع وجد أنَّ من يحسنون السخرية والإضحاك هم أكثر الناس امتلاءً بالحزن، فضحكه ضحك مر من شدة البكاء [82]، فمشهد الغربة السياسية يتخلله سخرية بعلاقة بينه وبين حاكمه تربطها كلمتان، كلمة حق، وكلمة باطل وظلم، وأسر من بعدها سريع، إنها حقًا من السخرية، قال في قصيدته "تفاهم"[83]

عَلاقتي بحاكمي

ليس لها نظيرْ

تبدأ ثم تنتهي..... براحةِ الضميرْ

متفقانِ دائمًا

لكنّنا

لو وقعَ الخلافُ في ما بيننا

نحسمهُ في جدلً قصيرْ

أنا أقولُ كلمةً

وهو يقولُ كلمةً

و إنّه من بعدِ أنْ يقولَها..

يسير

و أنا من بعدِ أنْ أقولَها..

أسيرْ!

مسكين أيها الإنسان فأنت محوط بسياج من عدم الثقة والمخبرين، الذين يجدون أنفسهم بقتل الحياة في قلوبهم، فكل إنسان أصبح في نظر الشاعر تهمة، حتى الحنين إلى الوطن الأمثل غير مسموح، فليس للناس ملاذ من كل ذلك إلا الاستغاثة والتضرع إلى الله، فحتى الأموات لم ينجوا من موتهم الآخر على أيديهم؛ إلى أين المسير بعد ذلك، قال في قصيدته "أينَ نمضي؟"[84]

---

[82] مسلم مالك بعير الأسدي، لغة الشعر عند أحمد مطر، ص13.

[83] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص145.

[84] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص148.

غصَّ ما تحتَ السَّماواتِ وفوقَ الأرضينْ

بعيون المخبرينْ

كلُّ إنسانٍ لدينا تُهمةٌ تمشي

ويمشي معها ألفُ كمينْ

نصفنا في داخلِ السّجنِ

ونصفٌ خارجَ السّجن سجينْ

لم نعدْ نملكُ ما نبديه من أصواتنا

... حتى الأنينْ

لم نعد نملكُ ما نخفيهِ في أعماقنا

حتّى الحنينْ

ضاقتْ الدّنيا على الدّنيا

وضيّعنا الجهاتِ الأربعين

ربّ لم يبقَ لنا في بلدِ الموتِ

سوى الموتِ من الموتِ مفرٌّ

ربِّ لكنَّ العساكرْ

نسفوا كلَّ المقابرْ

يا مُعينْ..

أينَ نمضي

ولدينا حاكمٌ يقتلُ حتّى الميتينْ

في الهجرة والعذاب تنبري الأقلام وتتلون الصور، في هذه المشاعر تيمنى الشاعر الغريب أن يتخلص من شعره الذي أثقل ظهره، بل قصمه، والسؤال الوحيد لذلك الحنين وللوطن الذي لا جواب له، لا أدري فهو الإجابة الفضفاضة التي حملت بمضموناتها كل معنى للسلب والضعف، وقلة الحيلة، قال في قصيدته "مقيمٌ في الهجرة"[85]

[85] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص187.

قلمي يجريْ

ودمي يجريْ

و أنا ما بينهما أجريْ.

الجريْ تعثَّرَ في إثريْ

و أنا أجريْ

والصَّبرُ تصبَّرَ لي حتّى

لم يطقْ الصَّبرَ على صبريْ

و أنا أجري.

أجري، أجري، أجري..

أوطاني شغلي.. والغربةُ أجري

يا شعري

يا قاصمَ ظهري

هل يشبهني أحدٌ غيري؟

في الهجرة أصبحتُ مقيمًا

والهجرةُ تُمعنُ في الهَجرِ

أينَ غدًا أُصبحُ

لا أدري.

هل حقًا أُصبحُ

لا أدري

هل أعرفُ وجهي؟

لا أدري.

كم أصبحَ عمري؟

لا أدري.

عمري لا يدري كم عمري

كيف سيدري؟

من أوّلِ ساعةِ ميلادي

و أنا هجري

إنه الوطن المعشوق الأبدي المقدس الذي لا يقابل بحبه شيئًا في الحياة، لقد أصبح مكانًا للامكان، ظلمة وكمدًا، ضاق بالشاعر فكأنه علبة الكبريت المغلقة، يختنق فيها الناس بفعل الغربة السياسية والحقوق المهضومة التي يعيشونها، فالحال لا بدَّ أن يتغير ولو بتقديم الموت لتحقيق ذلك، فمصير أعواد الثقاب الاحتراق إذا وجدت نارًا بقربها تميت فيها كل صورة من صور الإنسانية لتشبع رغبتها ونزعتها السلطوية، قال في قصيدته "مأساة أعواد الثقاب"[86]

أوطاني علبةُ كبريتٍ

والعلبةُ محكمةُ الغلقِ

و أنا في داخلها

عودٌ محكوم بالخنقْ

فإذا ما فتحتها الأيديْ

فلكي تحرقَ جلدي

فالعلبةُ لا تُفتحُ دومًا

إلا للغربِ أو الشّرقْ

أمّا للحرق، أو الحرقْ

يا فاتحَ علبتنا الآتي

حاول أنْ تفتحَ بالفرقْ.

الفتحُ الرَّاهنُ لا يجدي

الفتحُ الرَّاهنُ مرسومٌ ضِدي

ما دامَ لحرقٍ أو حرقْ

إسحقْ علبتنا، و انثرنا

لا تأبه لو ماتَ قليلٌ منّا

---

[86] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص62-63.

عندَ السّحقِ.

يكفي أن يحيا أغلبنا حرًّا

في أرضٍ بالغة الرّفقْ.

الأسوار عليها عشبٌ

.. والأبوابُ هواءٌ طلقْ

الشوق إلى الوطن أصيل في النفس لا تحده الحدود، ولا تقف في وجهه الأهوال، ولكن كيف يكون ذلك الشوق متاحًا، وهو مرهون، وسماؤه ليست لأهله، فقد أمسى ضيقًا على ساكنيه، فلم يبق للناس بنظره إلا الخيانة، فهي الملاذ الوحيد والمتاح، قال في قصيدته "دعوة للخيانة"[87]

هل وطنٌ هذا الذي

حاكمهُ مراهنٌ وأهلهُ رهائنْ؟

هل وطنٌ هذا الذي

سماؤهُ مراصدٌ وأرضهُ كمائنْ؟

هذا الذي

أضيقُ من حَظيرةِ الدّواجن؟

هل وطنٌ هذا الذي

تكون فيه عندما

تكون غيرَكائنْ

يا أيّها المواطنْ

خُنهُ وخنهُ ثمَّ خنهُ ثم خنهُ،

بركتْ خيانةُ الجراحِ للبراثنْ.

يا أيُّها المواطنْ

إن لم تخنْ

فأنتَ حقًّا خائن

[87] أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ص 159.

هكذا رسم أحمد مطر من خلال شعرة لوحة الضياع والذوبان في شخصية تكاد تكون مسحوقة في مجتمع قد هضم كل إنسانيتها، فبكلماته وصوره ظهرت الغربة السياسية عميقة متأصلة، داكنة بين القلوب وتحت الأجفان، ولسان حالها يخاطب المتلقي وينقله إلى الواقع بصورته الحقيقية الواضحة كوضوح الشمس بعيدًا عن التزييف والتزوير للحقيقية الراهنة، فما زالت الكلمات الصريحة تتمثَّلُ بمضمونها ومكنونها ومظهرها بمشهد الغربة عند كل قارئ لشعر أحمد مطر، وباحث عما يستتر وراء السطور، وما يعتلج في الصدور.

المبحث الثالث؛ الغربة عن "سورية" عند طائفة من الشعراء السوريين.

في الشعر الحديث ثار الشعراء بشعرهم لرصد واقع الحياة وتصويرها في المستويات كافةً، والشعراء السوريون هم طائفة من شعراء هذا العصر، فكان شعرهم تصويرًا للغربة والتمزق والخيبة، وتعبيرًا عن وضع الجيل والإنسان، فهو دنيا من الاضطرابات والقلق، مع فقد لكل القيم والمبادئ، ومع ذلك كله لم يغفل الشعراء السوريون صورة التفاؤل والأمل بشعرهم -ليقدموا بأشعارهم عالما ثريًا متنوعًا- التي انصهروا فيها، وعايشوا واقعها فكتبوا قصائدهم لنقل واقعها إلينا بكل أمانة وثقة.

إنّ الإنسان السوري الذي ابتعد عن دياره، يحمل بين جنبيه طموحًا أعرض من الفضاء، وآمالًا أطول من أشعة الشمس، وخلّف وراءه دنيا تهدهدها السذاجة والقناعة الروحانية، وإن يكن إلى جانبها الذل والجهل والخنوع، فإن حياة المغترب عن بلده سورية، هي حياة يشوبها الألم المضاعف، ألم الغربة والفقد، وألم الحياة الجديدة التي لا تعطي حب الوطن شيئًا من حقه مهما كانت مختلفة ومتطورة عنه، فلا بد أن الحنين إلى مرابع الوطن قد استولت على قلبه وطمس على فؤاده، فلم يرَ بدًا من التعايش معها بالشعور من دون المكان للبعد والمسافة بينهما، وقد عبر عن هذه المشاعر الحميمة والتعلق العظيم بالوطن طائفة من شعراء سورية المغتربين الذين سنقف على أجمل قصائدهم في التعبير عمّا يعتلج في صدورهم، وتبدع أقلامهم، في سبيل ذلك.[88]

1- نزار قباني

كانت حياة نزار قباني ممتلئة بالترحال والتطواف بين البلدان؛ وذلك بحكم عمله في المجال الدبلوماسي، فكانت هذه الحياة قد مثلت لديه صورة من صور الشوق والحنين والغربة في كثير من أشعاره المدونة، فالغربة الأولى تتمثل بالحنين إلى بيت الطفولة الدمشقي الذي يكاد يكون قارورة عطر، "وكأنه أسطر من

[88] انظر: عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص79.

الجمال، فهو المظلة التي تركت بصماتها واضحة في شعره، كما تركت غرناطة وإشبيلية وقرطبة بصماتها في الشعر الأندلسي.[89] وهي القصيدة المشهورة "**القصيدة الدمشقية**".

يدعو نزار قباني القارئ لشعره إلى الولوج إلى النص والبحث في مكنوناته؛ وذلك لمعرفة ما يصبو إليه من دون الوقوف على ظاهر اللفظ، فيصرح قائلًا: "على من يريد أن يقرأني أن يدخل عالمي الشعري دخولًا كاملًا شاملًا، أمّا الذي يكتفي بدخول غرفة واحدة من غرف البيت الكبير، وينسى بقية الغرف فلا أريده أن يزورني مرة أخرى، فأنا لست بحاجة إلى قرّاء يحملون كاميرات السَّياح ولا يستعملونها"[90] ولعلّ هذا هو منهجنا للبحث وراء الكلمات عن صور الغربة المتناثرة بين أشعاره بين غربة سياسية واجتماعية ومكانية وزمانية.

إن مظاهر الغربة القبانية تظهر في صور من العزلة والقهر والسلب للحقوق، فتجربته الشعرية قد نقلت إلينا ملامح هذه الأحاسيس من خلال نصوص عدة، فلقد أضحى الشعور بغربة الوطن الأمثل هو الهاجس الأول لديه في تعريفه للوطن، بأنه المكان الأمثل لكل ساذج، قال في قصيدته "تعريف غير كلاسيكي للوطن".[91]

وطني

يفهمكَ السذاجُ ريحانًا وراحْ

ويظنونكَ درويشًا يهزُّ الرأسَ، أو رقص سماحْ

ويظنونكَ في غفلتهم

نغمةً من بزقٍ..

لقد كرّس الشاعر نفسه للكتابة بالحق ضد باطل، وبالنور ضد العتمة والظلام، فالغريب في مجتمعه لا يجد له مهربًا إلا بالكتابة والتصوير لما يحس به، فالكتابة وإن كانت ذنبًا عظيمًا في نظر من تصفهم الوصف الحقيقي، فهي ما تزال تفعل فعلها في كل قارئ ومحب للشعر، ويرى قباني "أنّ الثائر الحقيقي سواء أكان ثائرًا سياسيًا أو ثائرًا شعريًا، لا بد أن يحمل تصورًا لشكل المستقبل.. فالقصيدة دون ثورة تصبح عملًا من أعمال الفوضى"[92] قال في قصيدته "لماذا أكتب؟"[93]

---

[89] انظر: عبد الرحمن ياغي، القصيدة الملائكية والجواهرية والدرويشية والقبانية، ط1، عمان، دار البشير، 1998م، ص 145.

[90] نزار قباني، قصتي مع الشعر، منشورات نزار قباني، بيروت، 1982م، ص 14.

[91] نزار قباني، لا، ط13، بيروت، 1999م، ص35.

[92] جهاد فاضل، قضايا الشعر الحديث، ط1، دار الشروق، 1984م، ص239.

[93] نزار قباني، قصائد مغضوب عليها، ص 11-12.

أكتب

حتّى أنقذَ النساءَ من أقبية الطغاة

من مدائن الأموات،

من تعدد الزوجات،

من تشابه الأيام،

والصّقيع والرتابة

أكتب

حتّى أنقذّ الكتابةَ من محاكم التفتيش

من شمشمةِ الكلاب

من مشانقِ الرقابة

والغربة عند نزار قباني لا تقف عند حدود المكان والعودة إلى الوطن والشوق إليه، بل ترتبط أيضا في البلد الآخر بالعودة إلى الأجداد وما تركوا من أثر في نزوع زمني يظهر في تصوير لمشهد أفعالهم في الأندلس، قال في قصيدته "قراءة أخيرة على أضرحة المجاذيب"[(94)]

أمشي..

غريبَ الوجه في غرناطة..

أحتضن الأطفالَ، والأشجار،

والمآذن المقلوبه..

فها هنا المرابطون رابطوا..

وها هنا الموحدون استوزروا..

وها هنا..

مجالس الشرابِ، والنساء، والغيبوبه..

وها هنا عباءةٌ دامية..

وها هنا... مشنقةٌ منصوبةْ.

[(94)] نزار قباني، لا، ص27.

ولم تقف حدود الغربة القبانية عند وطنه سورية، بل تجاوزت الحدود الأخرى لتصرّح عن حالة الشتات والضياع التي يعيشها وطننا العربي في هذا العصر، قال في قصيدته "الحاكم والعصفور"[95]

أبقى ملحوشًا ساعاتٍ

منتظرًا فرمانَ المأمورْ

أتأمل في أكياس الرّملِ

ودمعي في عينيَّ بحورْ

وأمامي كانت لافتةٌ

تتحدّث عن "وطن واحد"

تتحدّث عن "شعب واحد"

و أنا كالجُرذِ هنا قاعدْ

أتقيأ أحزاني..

وأدوسُ جميعَ شعاراتِ الطبشورْ

وأظلُّ على بابِ بلادي

مرميًا..

كالقدح المكسورْ

ولقد كان نزار قباني مفعم القريحة حاضر الصورة في الحنين إلى الوطن، فالوطن يمثل له سماءً يطير فوقها كطير، يلاقي من خلال السحب، ويكسب جماله من جمال طبيعة وطنه، قال في قصيدته "ورقة إلى القاري"[96]

شراعٌ أنا لا يطيقُ الوصولْ

ضياعٌ أنا لا يريدُ الهدى

حروفي، جموعُ السنونو، تمدُّ

على الصحو، معطفَها الأسودا

أنا الحرفُ. أعصابهُ. نبضهُ

---

[95] نزار قباني، لا، ص 13- 14.

[96] نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت، ج1، ص16.

تمزُّقهُ قبلَ أن يولدَا..

أنا لبلادي ... لنَجْمَاتِها

لغَيْماتِها ... للشذا.. للنَّدى.

هكذا رسم نزار قباني لوحة شعرية في حبّ الوطن والحنين إليه في الغربة، ولقد كانت هذه نماذج بسيطة من اختياراتنا الشعرية له للتعبير عن غربته في مجالات متنوعة، ولو أردنا رصد هذه الظاهرة والصورة الشعرية عنده لكتبنا في ذلك كثير، ولكن كانت زهرة من زهور حديقته الشعرية في حبِّ الوطن والشعور بالغربة عنه. فلم تكن غربته بمعنى البعد المكاني فقط، بل كانت تحمل معاني عدة بين غربة سياسية واجتماعية وزمانية علاوة على المكانية، وتجاوزت في بعضها حدود سورية إلى الوطن العربي قاطبة.

2- محمد الماغوط

عاش الشاعر السوري محمد الماغوط حياة ممتلئة بالحزن والأسى، وكان لهذه الحياة الأثر الكبير في رفضه للمجتمع والتمرد عليه بشعره؛ وبذلك بدأت بذوره الشعرية تتضح من خلال ملمح الغربة الاجتماعية والعزلة، فقد "كان للوطن صورة مثاليّة مكبّرة عن صورة الأم في مخيّلة الماغوط، فهو الذي ينشأ ويترعرع في أفيائه المواطن، فيأكل من ثماره، ويشرب من ينابيعه الصّافية، وينهض الوطن بعبقريات أفراده، فيرعى الشعر والشعراء، ويقدمهم على سواهم، ويحقق لهم طموحاتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية، وتكون العلاقة بين الوطن والمواطن جدليّة، فبقدر ما يعطي المواطن يأخذ، ولكن الواقع خيّب آمال الماغوط، فإذا الوطن يهيئ له الرصاص والمشانق أو التهجير على الأقل، فيرى الماغوط لذلك أن الوطن أصبح مقبرة للمناضلين والشرفاء وأصحاب العطاءات، وأن مصير هؤلاء هو القتل أو التهجير، أو الحبس"[97] فبهذه المعاني عبّر عن الغربة في الوطن، فالحبس قد زاد من غربته وألمه، قال في قصيدته "القتل"[98]

ضعْ قدمك الحجريّةَ على قلبي يا سيدي

الجريمة تضرب باب القفص

والخوف يصدحُ كالكروان

ها هي عربةُ الطاغية تدفعها الرياح

---

[97] انظر: خليل موسى، قراءات نصية في الشعر العربي المعاصر في سورية، (الهيئة العامة السورية للكتاب، 2012م)، ص142-143.

[98] محمد الماغوط، الأعمال الشعرية، ط2، (دمشق: دار المدى، 2006)، ص58-65-66.

وها نحن نتقدّم

كالسّيف الذي يخترق الجمجمة.

إننّا من الشرق

من ذلك الفؤاد الضعيف البارد

إننا في قيلولةٍ مفزعةٍ يا ليلى

لقد كرهت العالم دفعة واحدة

هذا النّسيجَ الحشريَّ الفتّاك

و أنا أسير أمامَ الرؤس المطرقة منذ شهور

والعيون المبللة منذ بدء التاريخ

ماذا تثير بي؟ لا شيء

إنني رجل من الصفيح

أغنية ثقيلة حادة كالمياه الدفقه

كالصهيل المتمرد على الهضبه.

في الغربة يطلق الماغوط صورة معتمة قد كانت داكنة، حملت في مضامينها ألوان الفرقة والعذاب فالغريب يعيش حياة قاسية يكابد فيها مرارة البعد والفراق، لذلك يلجأ الشاعر إلى وصف الطبيعة في عيون الغريب، قال في قصيدته" الغرباء"[99]

قبورنا معتمةٌ على الر ابيه

والليل يتساقط في الوادي

يسيرُبينَ الثلوج والخنادق

أيتها الجبال المكسوةُ بالثلوج والحجاره

أيها النهر الذي ير افق أبي في غربته

دعوني أنطفئ كشمعة أمام الرّيح

أتألّم كالماء حول السفينه

[99] محمد الماغوط، الأعمال الشعرية، ص37- 38.

فالألم يبسط جناحه الخائن

والموتُ المعلقُ في خاصرة الجواد

يلج صدري كنظرة الفتاة المراهقة

كأنين الهواء القارس.

لقد ارتبط حب الوطن عند الماغوط بالحزن، الذي شكل "صورة إبداعية خلاقة، تنحو إلى مشاركة الشاعر من المتلقي، وهو في كلّ صورة يفعل ذلك؛ ليدخل في أعماق الذات. وقد كان حزنه كالإنسان الذي يتبع الشاعر أينما كان وأينما حلّ"[100] فالشعر الذي لا ينقل إلى المتلقي إلى عالم الشاعر الخاص هو هذر من القول، فالحزن على الوطن هو باب من أبواب العزلة الاجتماعية في عالمه الخاص، في مشهد غربة عن الوطن بصورة دمشق، قال في قصيدته "جنازة النسر"[101]

أظنّها من الوطن

هذه السحابةُ المقبلةُ كعينين مسيحيتين

أظنُّها من دمشق

هذه الطفلةُ المقرونةُ الحواجب

هذه العيونُ الأكثرُ صفاءً

من نيرانٍ زرقاءَ بين السّفن.

أيّها الحزن.. يا سيفيَ الطويل المجعد

الرصيفُ الحامل طفلة الأشقر

يسأل عن وردة أو أسير،

عن سفينة وغيمة من الوطن..

ولعل مشهد الحزن والغربة عن الأحبة والوطن يظهر أكثر وضوحًا في تصويره للمسافر العربي الذي ابتعد عن وطنه وهو يرتحل من بلد إلى آخر، قال في قصيدته "مسافر عربي في محطات الفضاء"[102]

أيها العلماءُ والفنيّون

---

[100] إيمان عبدو عبد القادر، صورة الإنسان في شعر محمد الماغوط، رسالة ماجستير، د. جودت إبراهيم (مشرف)، جامعة البعث، 2010، ص 185.

[101] محمد الماغوط، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 16.

[102] محمد الماغوط، الأعمال الشعرية، ص207.

أعطوني بطاقة سفر إلى السّماء

فأنا موفدٌ من قبل بلادي الحزينه

باسم أراملها وشيوخها وأطفالها

كي تعطوني بطاقة مجانيةً إلى السّماء

ففي راحتي بدل النقود.. "دموع".

ولقد كان الماغوط في غربته يرسل رسائل مشمولة بحب الوطن الذي تربى فيه "القرية" ومن خلال هذه الرسائل يحاول التخفيف من شعوره بمرارة الغربة الاجتماعية، فالكتابة في رأيه هي سبب لكل مايعانيه، ولكنه لا يستطيع إلا يذنب بالكتابة ويذنب، فالناس في دمشق يبحثون عن كل حاجة، بينما يبحث الشاعر بين الكلمات ليعبّر عما يدور في نفسه ومخيلته، قال في قصيدته "رسالة إلى القرية"[103]

مع تغريد البلابلِ وزقزقة العصافير

أناشدكَ الله يا أبي

دع جمع الحطب والمعلومات عني

وتعال لملم حطامي من الشوارع

قبل أن تطمرني الرّيح

أو يبعثرني الكناسون

هذا القلم سيوردني حتفي

لم يترك سجنًا إلا وقادني إليه

ولا رصيفًا إلا ومرَّغني عليه

و أنا أتبعه كالمأخوذ

كالسّائر في حلمه.

هكذا كان منهج الماغوط في تدوينه الشعري للغربة عن الوطن، هذا المنهج الذي برزت ملامحه في غربة الحبس التي فرضت عليه قسرًا، ثم لجوء الشاعر إلى الطبيعة للتخفيف من ألم الغربة والشوق، وفي غالب شعر الماغوط الذي صوّر فيه حبّ الوطن والغربة عنه، قد اصطبغت هذه الأشعار بشعور الحزن، ذلك الحزن الذي فجّر لديه القريحة والإبداع الشعري العميق في تصوير المعاناة.

---

[103] محمد الماغوط، الأعمال الشعرية، ص213.

خاتمة

إنَّ قيمة الوطن في الشعر العربي هي قيمة عظيمة، وقد حاول البحث من خلال هذا الأشعار تأصيل هذه الظاهرة الشعرية وفق منهج مقارن بين الصورة الشعرية القديمة في الغربة عن الوطن، وبين الغربة عنه في الشعر العربي الحديث، فالغربة عن الوطن حملت بمضمونها صور متعددة بين ما يعتلج في الأنفس وما رسمته أقلام الشعراء حاضرًا في مخيلة المتلقي وقارئ النص، وهذه الدراسة هي جولة في أشعار حب الوطن وألم الفرقة والغربة عنه، ولا يدعي البحث الكمال، والنضج التام، ولا يخرج على باب المحاولة والتأثير، والله من رواء القصد.

مصادر البحث ومراجعه

1) القرآن الكريم.
2) إسماعيل. عز الدين، التفسير النفسي للأدب، ط4، (مكتبة غريب، د. ت).
3) إسماعيل. علي بن، ابن سيدة، المخصص، (لبنان: دار الكتب العلمية).
4) باشلار. غاستون، جماليات المكان، غالب هلسا (مترجم)، ط2، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات، 1984م).
5) الجاحظ. عمرو بن بحر، الحنين إلى الأوطان، ط2، (دار الرائد العربي، 1982م).
6) الجبوري. يحيى، الحنين والغربة في الشعر العربي، ط1، (عمان: دار مجدلاوي، 2008م).
7) خليفة. عبد اللطيف، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، (القاهرة: دار غريب، 2003).
8) درويش. محمود، الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، (رياض الريس للنشر، 2005م).
9) الدويهي. خليل، ديوان أبي فراس الحمداني، ط2، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1994م).
10) زعيتر. حمادة تركي، جماليات المكان في الشعر العباسي، ط1، (دار الصادق الثقافية، 2013م).
11) سعيد. علي أحمد، أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، (دار المدى للثقافة والنشر، 1996م).
12) سعيد. علي أحمد، أدونيس، مقدمة للشعر العربي، ط3، دار العودة، بيروت، 1979م.
13) الشايب. أحمد، تاريخ الشعر السياسي، ط5، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1967م).
14) عطار. نجاح، الجواهري في العيون من أشعاره، ط4، (دار طلاس للطباعة والنشر، عام 1998م).
15) العقاد. عباس محمود، ابن الرومي، حياته وشعره، ط5، (القاهرة: المكتبة التجارية، 1963).
16) فاضل. جهاد، قضايا الشعر الحديث، ط1، (دار الشروق، 1984م).
17) قباني. نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، (بيروت: منشورات نزار قباني).
18) قباني. نزار، قصتي مع الشعر، (بيروت: منشورات نزار قباني، 1982م).
19) قباني. نزار، لا، ط13، (بيروت: د.ن، 1999م).
20) قباني. وسام، عامريّات ابن دراج القسطلي، (دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2001م).
21) قاسم. عدنان، الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر: دراسة نقدية في أصالة الشعر، ط1، (المنشأة الشعبية للنشر، 1980م).
22) القاضي. النعمان، أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي، (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1982م).
23) الماغوط. محمد، الأعمال الشعرية، ط2، (دمشق: دار المدى، 2006م).

24) المجاطي، أحمد المعداوي، ظاهرة الشعر الحديث، (الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدرسي، د.ت).
25) محمود. عادل، الجوهرة المؤلمة محمود درويش، (دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، 2011م).
26) مطر. أحمد، المجموعة الشعرية، ط1، (بيروت: دار الحرية، عام 2011م).
27) المعري. أبو العلاء، سقط الزند، شرح: أحمد شمس الدين، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1990).
28) المعري. أبو العلاء، لزوم ما لا يلزم (اللزوميات)، (بيروت: دار صادر، د.ت).
29) مكي. محمود علي، ديوان ابن دراج القسطلي، ط1، (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، 1961م).
30) موسى. خليل، قراءات نصية في الشعر العربي المعاصر في سورية، (الهيئة العامة السورية للكتاب، 2012م).
31) الناعوري. عيسى، أدب المهجر، ط3، (مصر: دار المعارف د. ت).
32) نيازي. صلاح، الاغتراب والبطل القومي، ط1، (مؤسسة الانتشار العربي، 1999م).
33) هيكل. أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط13، (القاهرة: دار المعارف، 1958م).
34) ياغي. عبد الرحمن، القصيدة الملائكية والجواهرية والدرويشية والقبانية، ط1، (عمان: دار البشير، 1998م).

harmoon.org